

يوسف
الصديق
في
البِئْر
القَصْر
السِّجْن
الحُكْم
للمفكر الاسلامى
زين السماك
عضو المجلس الأعلى للشئون
الاسلامية

اهداءات ٢٠٠٠
المهندس / أحمد زين العابدين السماك
رئيس المركز الاسلامى بسيدى على
الإسكندرية-السماك

يوسف الصديق

في

البئر - القصر - السجن - الحكم

للمفكر الإسلامى

زين السماك

عضو المجلس الاعلى للشئون الاسلاميه

٢٠٠٠



تقديم

لقد سعدت سعادة بالغة وأنا أقرأ كتاب سيدنا يوسف الصديق عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأزكى السلام للأخ الكريم الأستاذ أحمد زين السماك، مماجعلنى أعيش فى هذه الروضة العظيمة، روضة هذا النبى الكريم ابن الأنبياء المرسلين، الشجرة الفيحاء التى تناسل منها وهى شجرة أبى الأنبياء إبراهيم الخليل وإسحاق الصالح ويعقوب الصابر، فكان ليوسف الصديق كل هذه الصفات العظيمة، ولذلك حينما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكرم الناس قال: أتقاهم، فقالوا ليس عن هذا نسألك، فقال: يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله إلى آخر الحديث " البخارى)، وفى رواية عن الترمذى "إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم" فهل هناك أعظم وأكرم من شهادة النبى الخاتم سيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم لأخيه يوسف عليه السلام؟ وهل هناك نسب عظيم كهذا النسب الممتد إلى صفوة غير منقطعة من الرسل الكرام عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

ولعل يوسف الذى امتحن على أشد ما يكون الامتحان فصبر واحتسب أعظم ما يكون الصبر والاحتساب هو الذى جعله فى هذه المنزلة الكريمة امتحن امتحانا فى أعظم فتن الدنيا وهى فتنة امرأة العزيز، امرأة ذات حسب ومال وجمال ولها عليه الأفضال الكثيرة والعظيمة، فيعصمه الله بفضله " ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء"، وامتحن من إخوته فكظم غيظه وعفا عنهم وأحسن إليهم، وامتحن بالسجن مع براءته فصبر واحتسب، واستطاع أن يحول السجن فى داخل نفسه إلى جنة وجنة وإلى دعوة لله تهدى وتعلم وترشد وتتنبأ، فكان النور فى قلبه يهديه، والعصمة فى نفسه تمنعها أن تسخط، وبرهان الله يمنعه أن يقع فى خطيئة، والصبر يمنعه أن يتعجل الأمور، ويزيده اليقين اطمئنانا. ولقد بين فضله فى الصبر والأناه سيد ولد آدم عليه وعلى أخيه يوسف صلوات الله وسلامه وأشاد بصبره حينما قال " يرحم الله أخى يوسف لقد كان صابرا حليما لو لبثت فى السجن ما لبثه أجبت الداعى ولم التمس العذر"

والأستاذ أحمد زين السماك يملك عليك شعورك ونفسك بأسلوبه السهل الممتنع، وروحه التى تطوف بك إلى أعلى فتجعلك تستشرف النفحات الربانية وتعيش مع سيدنا يوسف عليه السلام حياته الممتلئة إثارة وابتلاء وتربية رائعة يرعاه فيها ويؤدبه ربه، ويملأ قلبه صدقا وصبرا وحلما وأناة وعفة وغنى عن كل الخلق، فلا تستطيع أن تكف عن قراءة الكتاب حتى تنتهى منه.

أسلوب الأستاذ أحمد زين فريد فإنه يكتب بروحه بالإخلاص الذى أودع قلبه فخرج عبيره ليتنسمه من يقرأ له، وتتلاقى الأرواح روح يوسف مع روح الكاتب مع أرواح القراء ولتكون كلها كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم " الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف."

بارك الله فى الأخ الكريم وزاده من فضله فهو صاحب كتاب موسى والخضر عليهما السلام وصاحب " ساعة فى رحاب الرسول" وصاحب يوسف الصديق عليه السلام، ولا يعرف الفضل لأهله إلا ذو فضل، ونفع الله بهذا الكتاب وما فيه كل المسلمين وغيرهم ممن يؤمنون بكل الأنبياء والرسل عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم، شكر الله له وزاد من أمثاله ممن ييسرون لمن يقرأ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الشيخ/ عبد الله عبد ربه بكر

شيخ علماء منطقة الاسكندرية الأزهرية الأسبق


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقديم

شاءت الأقدار أن أكون أحد الذين يكتبون النفحات الربانية التى يفيض بها الله سبحانه وتعالى على قلب شيخى وأستاذى ووالدى الروحى الشيخ زين السماك أثناء لقاءاته الدينية بالمركز الإسلامى لسيدى على السماك لتخرج على لسانه كنسيم عليل فى ليل الصيف القائظ فتسرى فى قلوب سامعيها لترتقى بها درجات فى محبة الله ورسوله وتسمو بالأرواح لتحلق فى سموات الصفاء الروحى مكبرة الله مسبحة بحمده شاكرة لأنعمه مغردة بجماله وجلاله. فبعد أن أكرمنى ربى عز وجل بشرف كتابة فيوضات " ساعة فى رحاب الرسول" لشيخى الجليل فإذا بكرمه يزيد ويزيد فأقوم أيضا بتسجيل هذه النفحات العظيمة لتكون هذا الكتاب القيم "يوسف الصديق."

كنت وأنا أكتب هذه النفحات عن شيخى الحبيب أعيش الأحداث لحظة بلحظة مع سيدنا يوسف عليه السلام منذ طفولته وحتى وصوله إلى الحكم وكأننى أرافقه فى كل خطواته. لقد غاص بنا شيخنا فى أعماق هذه الأحداث بكل ما متعه به الله من سلاسة الأسلوب وعمق التفكر والتدبر فى آيات القرآن حتى أنه يأسر القارئ فيأخذه من نفسه ويشده إلى قصة حياة سيدنا يوسف ولا يجعله يترك الكتاب إلى أن ينتهى من قراءته.

إن تطلع الكاتب نحو روحانيات الدعوة جعلته يحلق بالقارئ فى سماء المعرفة الإلهية ويجوب به فى آفاق العلم اللدنى ووسائل الاتصال بالله سبحانه وتعالى بالرؤى والمشاهدات والإلهامات والهواتف، فقد أعاد لنا الكتاب مرحلة تاريخية لمع فيها أقطاب الصوفية بكلماتهم الرقيقة وأحاسيسهم الروحية، وقد أحسست بذلك أثناء اطلاعى على معانيه، كما شدنى إلى هذا الكتاب كلماته التى تحمل عبق التاريخ.

وعلى الجانب الآخر فإن الكتاب له شأن فى تاريخنا المعاصر، فقد تسلل إلى أعماق النفس الإنسانية من خلال ما حدث من إخوة يوسف ومن امرأة العزيز، وما يمكن أن يفعله الشيطان فى هذه النفس، وكيف أن الله يحفظ المخلصين من عباده من وساوس الشيطان وأهواء النفس الإنسانية، وتلك دروس ومواعظ يفتقدها هذا الجيل. فقد تطرق الكتاب إلى درس أخلاقى غاية فى الحساسية وهو تعمد عدم ذكر اسم امرأة العزيز حيث اعتاد الناس الخوض فى الأعراض وإشاعة الكلمات التى تسئ إلى الشرف والسمعة. وتلك قضية أخلاقية ودينية ينبه إليها الكتاب حتى لا تتفشى أمثال تلك السلوكيات فى المجتمع الإسلامى.

والكتاب يمتلئ بالكثير من تلك المواقف الأخلاقية والتى أحيل إليها القارئ ليكتشفها بنفسه ويتأثر بها فى حياته، وتلك هى الدروس والمواقف التى مر بها يوسف عليه السلام وقد انسكبت فى تاريخ حياته وارتبطت بقصته لتطل بوجهها على الأجيال المتعاقبة.

أسأل الله العلى القدير أن ينتفع الناس بهذا الكتاب القيم المتميز بتجديده فى لغة الخطاب الدينى، لا سيما وأن العالم بدأ فى ألفيته الثالثة، والله الموفق.

دكتور/ محمد موسى درغام
أستاذ بكلية العلوم – جامعة الاسكندرية



مقدمـــه

كلما تذكرت يوسف عليه السلام أحسست بالأسى الذى عاناه، وأحسست أيضا بالأسف الذى ملأ حياة يعقوب عليه السلام. فكلمة يوسف هى مزيج من الأسى والأسف ، فهى كلمة رقيقة، ودمعة ساخنة على وجه الحياة، ولعل المواقف الحزينة التى مر بها يوسف تكون تذكرة للنفس المتوجعة، وللفؤاد الحزين لتعتصم بالله، ولتعلم أن فرج الله قريب من المحسنين، ومن المؤمنين الصابرين. فلقد تعرض يوسف للأذى من أقرب الناس إليه، وهم إخوته، ومن أحب الناس إليه، وهى امرأة العزيز، التى كانت تهتم بتربيته وتعنى به منذ طفولته. كما تعرض للسجن والهوان بسبب تمسكه بمبادئه وأخلاقه وحينما ألقى به فى البئر وأخرجه الله سالما، باعه من عثر عليه بثمن بخس، دراهم معدودات.

فكلمة يوسف هبطت وحيا على قلب الرسول الكريم وهو يعانى من شدة قومه، ومن أذاهم، فكانت بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم كالبلسم الشافى، والحافز القوى على استمرار الرسالة رغم كيد الكائدين وكفر الكافرين. ولتبقى كلمة يوسف عنوانا بارزا لكل من ألمت به مصيبة أو اشتدت به شدة، ليخرج بسلام، ويراوده الاطمئنان، وذلك ما يدعو إليه الإيمان بضرورة التوكل والتسليم لله سبحانه وتعالى. وهذا يدعو إلى وقوع المؤمن فى ألطاف الله، فإذا ما أدركته ألطاف الله فلينم هادئ النفس، فإن المخاوف يعقبها الأمان، وتلك طبيعة أولياء الله الصالحين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

أهلا بك أيها الصِّدِّيق، لقد جئت فى الوقت المناسب، فإن المخاوف والمشاكل والاضطرابات تحيط بنا من كل جانب، فذكرياتك تعيد للنفس هدوءها وطمأنينتها، وتدعوها إلى الإيمان الكامل بأن الله موجود، وأن الله يرى ويسمع

وليسمح لى كل الحيارى أن يتتبعوا خطوات يوسف فى أيام حياته، فلعلهم يعثرون على الحل الأمثل، ويقتنعون بالقضاء والقدر، ويؤمنون بالله وبأنه لن ينسى عباده المتقين.

وفى النهاية، ندعو كل الأرواح المحبة للأمن والعدل والسلام أن تسعى إلى محرآب يوسف وتدخل من باب القصر، وتجلس حول عرش يوسف، لتشهد حكمته ونصحه ولينه وإيمانه، وما أفاء الله عليه من نعم باطنة وظاهرة، وكان فضل الله عليك عظيما.

زين السماك



نتحدث فى هذا المقام فى محاولة لتسجيل وجهة نظرنا فى سورة يوسف عليه السلام، وذلك لوضع هذا الكتاب بين يدى المهتمين بالدراسات الإسلامية من أجل العودة إلى روحانية الدين، وضرورة تدريس هذه الإشراقة الروحية لتكون ضمن المناهج الدراسية للمراحل المختلفة فى مصر والعالم الإسلامى، حتى لا تغيب القيم الروحية عن كثير من دارسى القرآن الكريم لتكون سلاحا قويا فى مواجهة الإلحاد والجمود الفكرى.

ونبدأ بحمد الله وتسبيحه مبتدئين بأول افتتاحية لسورة يوسف فى قول الله تعالى " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ."

إن "بسم الله الرحمن الرحيم" فى سورة يوسف عليه السلام تعنى أول ما تعنى اسم الله الذى تجلى على يوسف، كما تعنى أنه لا اعتراض على ما جاء من أسرار فى القرآن تتمثل فى اجتباء الله ليوسف عليه السلام وتعليمه تأويل الأحاديث والاطلاع على الأقدار والغيبيات وتمكينه فى الأرض، وليستقبل القلب والعقل آيات الله بإمعان وتدبير وتقدير.

ويستهل الله سبحانه وتعالى أولى آيات هذه السورة المباركة بثلاثة أحرف "الٓر" تعبر عن حقيقة روحية وغيبية فى باطن بحور الأسرار والمعانى، فأقل محاولة للتعرف على معانيها هو التأمل للتوصل إلى أسرارها ومعارفها، والوصول إلى تلك الأسرار والمعارف يتأتى من خلال الاغتسال الروحى وطهارة القلب واطمئنان النفس وسمو الروح، ولعل المحاولة تجدى فى اكتشاف الأسرار، والوصول إلى كنوز الحقائق فى بحار العلم، حتى يصقل الإيمان ويرسخ فى القلب. وذلك كله من خلال عين باحثة عن اقتناع بالروحانيات الممتزجة بالرحمة، وليطل القلب على حدائق العلم ويرى الحقائق كأزهار جميلة متناثرة من خلال عين مبصرة وقلب يمتلئ بالشفافية، وتلك إطلالة روحية تحول الرموز والأحرف إلى معان حية فتبدو المعانى واضحة متألقة كما جاء فى قول الله تعالى "الٓر."

فحرف **الألف** يبدو وكأنه إشارة إلى كلمة إحسان، وحرف **اللام** إشارة إلى كلمة لطف، وحرف **الراء** إشارة إلى كلمة رحمة. فالأحرف الثلاثة تعبر عن ثلاث كلمات هن إحسان ولطف ورحمة، وهذه الحروف الثلاثة تجسيد لإحسان الله ولطفه ورحمته على يوسف وأبيه

يعقوب عليهما السلام، وهى معان توضح وتؤكد جوهر الصلة الروحية التى جمعت بين يوسف وبين أبيه من جهة، وبينهما وبين الله من الجهة الأخرى. وهذه الصلات الروحية تعيد الارتباط والصلة بمن يتابع آيات الله المنزلة، ليتأهل قلبه لصفات الإحسان واللطف والرحمة، ولا يزال عند هذه المعانى الروحية راجيا وداعيا ربه أن يتغمده بإحسانه ولطفه ورحمته.

وحينما يتحقق القلب بالإجابة، يمتلئ بحقيقة الإحسان واللطف والرحمة، وتتنزل ملائكة أسماء الله الحسنى على القلب لتعلن عن التجلى الأعظم بصفة الله المحسن، واسم الله اللطيف، واسم الله الرحيم. وتلك هى المعانى السامية والأحوال الروحية الطاهرة، التى تؤكد معنى قول الله تعالى "الٓر". وتلك هى أسرار وأسماء الله الحسنى التى لازمت يوسف ويعقوب عليهما السلام فى رحلة الحياة، ليخفق القلب بالحب الإلهى، ويلهج اللسان بالتسبيح والتهليل والتعظيم، وتطمئن النفس بلطف الله ورحمته. وتلك هى بركات الله التى غمرت قلب يوسف، وشملت حياته الكريمة، وسمت به إلى الدرجة الروحية الرفيعة، وميزت صورته الروحية فى عيون الملائكة والرسل والأنبياء وأهل الله الصالحين.

والصورة الروحية لا تفنى ولا تزول، فإذا مافنى الجسد وتلاشت الوجوه، فإن الوجه الذى يبقى فى عالم الروح هو الذى ارتسمت عليه أنوار الإيمان والعلم، وتلك من أنوار الله وبركاته، فوجه سيدنا يوسف فى عالم الروح تتلألأ عليه أنوار الإحسان واللطف والرحمة، لتعبر عن صلة أكيدة بينه وبين الله سبحانه وتعالى تركت أثرا لا تمحوه الأيام ولا السنون. إنها البركات المركزة فى أسرار "الٓر" ،تلك التى حظيت بإشراقات الله النورانية، التى تحصن بها يوسف عليه السلام، لتكون ثوبه ورداءه فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وليتحصن بها كل عبد ربانى أفرغ قلبه لله، فملأه الله بالنور والحكمة والرحمة.

وإن كانت "الٓر" أسرارا اختص بها يوسف عليه السلام، فإن الله وصفها بقوله تعالى

"تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ".

وكلمة تلك أخذت على عاتقها مسئولية الإشارة إلى جواهر الأسرار الربانية التى حظى بها يوسف، فالتفتت إليه الأنظار لتعلن عن الجمال المتألق فى وجهه وقلبه وخلقه، وعند كلمة تلك يتوقف البصر برهة، وقد ساوره التأمل، ليتابع الإشارة الإلهية الموجهة إلى آيات الكتاب المبين، وفى آيات الكتاب المبين يبحث العقل فى آيات الله وبراهينه، بينما يتفتح القلب باستقبال نور

الله كما تتفتح زهور الربيع باستقبال أشعة الشمس، فمن خلال الهمة الروحية تتفتح آيات الله وتتضح براهينه فى عيون الباحثين وعقول المفكرين وقلوب المؤمنين.

فالباحث بعقله يدرك آيات الله الكونية، كالجبال الشاهقة، والبحار العميقة، والأشجار الباسقة، والشمس الساطعة، والقمر المنير، وهى واضحة بوضوح ظهورها، وبائنة لا ينكرها إلا من تعامت عيناه عن الرؤية الصحيحة، وقلوب المؤمنين تتحقق من أسرار الله وآياته الروحية المتمثلة فى عمق المعجزات والكرامات وصدق الإلهامات والرؤى والمشاهدات. وهذا ما أنعم الله به على الناس، وكتبه على الصالحين منهم، وجعله كتابا وقدرا للناس جميعا على الأرض، وألزم الله سبحانه وتعالى الناس بضرورة المعرفة، فمنهم من يفكر بعقله فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، ومنهم من يدرك بقلبه آيات الله وأسراره، ومنهم من يجمع بين رؤية العقل والقلب معا، وهذا ما بينه الله سبحانه وتعالى فى سننه الكونية وأسراره الروحية، التى ظهرت واتضحت مع الرسل والأنبياء وأولياء الله الصالحين، فيما أدركوه من حقائق وعلوم روحية تؤكد الإيمان الذى لا يخالطه شك أو ريبة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

لقد أنزل الله القرآن عربيا ليسهل فهمه على من أنزل عليهم، وليكون هذا الفهم هو النواة التى تنبت زرعا أخضر منتشرا فى بقاع الأرض، حتى تتداول معانيه وأسراره الخفية، من أجل مخاطبة العقول والقلوب.

والعقل حينما يؤمن بما يعى، فإنه يخاطب القلب، والقلب يغرق فى بحار الحب الإلهى، متأملا فى ألطاف الله ورحمته، وأجمل حديث للقلب هو مخاطبة القلب للقلب فى داخل الكيان الإنسانى وفى التأثير على القلوب، وحينما يتخاطب القلب مع نفسه لا يكون ذلكِ عجيبا ولا مستغربا طالما أن الله يسكن فى كل قلب، ليكون نورا لكل عبد مؤمن، فكل إجابات القلب صادقة صدق الوحى والإلهام.

نحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَـٰفِلِين

أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين الحكمة والموعظة والعلم من خلال آيات القرآن، واختار أحسن القصص الذى يتفق مع الحالة التى كان عليها الرسول الكريم الذى أنزل عليه القرآن، حيث كان عليه الصلاة والسلام يستشعر ظلم أهله وعشيرته فى مكة. فكان الرسول يعانى من أهل مكة، بل من أقرب الناس إليه، فأنزل الله عليه ما يهدئ من روعه، ويزيد صبره. وذلك بما أوحى إليه من أنباء يوسف ويعقوب عليهما السلام، وما تعرض له كل منهما، فيوسف عليه السلام أصابه الأذى من إخوته، كما أصيب يعقوب عليه السلام بالضيق والحزن من أبنائه بما فعلوه بأخيهم يوسف. وإنه من دواعى الصبر أن يتذكر الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الأحداث التى تهون عليه ظلم أهله وعشيرته له، وإن مأساة يوسف لا يغفل عنها كل باحث عن الصبر.

وتقدم قصة يوسف عليه السلام احتفاء روحيا يتلاقى مع روحانيات النبوة فى استقبالها للعلوم والأسرار الإلهية التى كان عليها يوسف عليه السلام، وانتقال أسرار يوسف إلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم. وعلى هذا النسق تتجمع أسرار الرسل والأنبياء فى داخل القلب المكلف بالدعوة، ولتبعث رسالات السماء مرة أخرى من تحت سماء الدعوة المحمدية، وليعود يوسف عليه السلام إلى بيته فى الأرض فى قلب الرسول الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وتلك هى المعرفة الحقة بيوسف عليه السلام، حيث تتألق روحانياته فى داخل القلب، وتشرق على حياة الرسول لتبشره بالفرج من بعد الضيق، واليسر من بعد العسر، والأمل من بعد اليأس. وليعلم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله معه بإحسانه ولطفه ورحمته، ولا يغيب عنه تأييد الله له لنشر الدعوة، والصبر على المكاره، والنصر على الحاقدين والكارهين والكافرين.

٥

رؤيا يوسف.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ

ويتحدث القرآن الكريم فى هذه الآية ليظهر علما روحيا كامنا فى أعماق الإنسان، جعله الله وسيلة اتصال بينه وبين عباده، فهو كالنهر الذى يختفى فى باطن الأرض ولا تكشفه إلا تلك الينابيع العذبة التى تؤكد وجوده ومعالمه، وفى قلب الإنسان نهر من العلم قد يتكشف بفعل الأحداث، فهو سر من بحور أسرار الله.

وقد أراد الله أن يظهر نبعا منه فى تلك الآية الكريمة التى تعبر عن الرؤيا الشهيرة التى رآها يوسف فى طفولته، مما جعله يهتم اهتماما كبيرا بإبلاغ والده بما رأى، وتلك رؤيا من نبع العلم الإلهى الذى منَّ الله به على قلوب الصالحين، ورؤيا يوسف هى رافد من روافد هذا العلم، وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بقوله " الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة "(مسلم).

وحينما تكون الرؤيا ليوسف وهو فى عالم الطفولة، لا فرض عليه ولا تكليف،فمعنى ذلك أن يوسف عليه السلام من العلماء منذ نعومة أظفاره، وتلك هى الطبيعة النورانية التى أتت وهبا ولم تأت كسبا من خلال كثرة التكليف والتشديد على النفس، كما يفعل بعض العباد أو النساك، وتحدث يوسف بهذه الطبيعة الروحية فى قوله لأبيه:

إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ

وهذا هو يوسف فى نبوته منذ طفولته يتحدث إلى أبيه يعقوب عليه السلام من خلال ما رأى فى رؤياه وما تعلمه من علوم الغيب، ويستمع الأب بحرص شديد وإمعان واضح، لأنه يعلم حقيقة هذه المعانى الروحية القائمة على الرؤى الصادقة، والمشاهدات الروحية، والإلهامات القلبية، والإشارات الغيبية، والدعوة المستجابة، وتأويل الأحاديث، وتفسير الرؤى، وتلك من علوم

الغيب، وليعلم المدقق فى العلوم الروحية والمؤمن بالغيب، أن تفسير الرؤيا من نبى أو ولى كالحكم النافذ شأنه فى ذلك شأن الدعوة المستجابة.

وحينما يتحدث يوسف لأبيه فإن الأب يرى فى ابنه العلامات المبكرة للنبوة، والإشراقات الروحية والنورانية، التى تتألق على وجه طفله، وقد ارتسمت عليه سمات البراءة والطهر والوداعة، إنها لحظات مبهجة فى قلب الأب، وسعادة غامرة تلمع فى عينيه، حينما يرى ابنه من خلال إشراقات النبوة. إنها الإشراقات الروحية التى أطلت على وجه يوسف ليتألق أمام والده ومن حوله بالجمال الروحى، والجاذبية الأخاذة، والقبول الشديد، كما تترك آثارها على النفس لتتسم بالطمأنينة والرضا والطاعة، بينما يمتلئ القلب بحب الله سبحانه وتعالى وحب الخلائق أجمعين.

حقا إنها أسرار الجمال الروحى وقد ألقت بنفسها على وجه يوسف المتألق بمعانى الجمال والجلال، وهذا إشعاع روحى تتأثر به النفوس وتلين له القلوب، ويحظى بالقبول، ولتسمع دعواه التى تنتشر بين الناس وتفوح كالنسيم العليل، وليتحقق الخير والحب والجمال على أرض الحياة.

وحينما أدرك يعقوب عليه السلام بفطنته ما ينتظر ابنه يوسف من مجد روحى عظيم، يؤثر فى حياة الناس ويدعوهم إلى عبادة الله، خر قلبه ساجدا لله سبحانه وتعالى، وسبح لسانه لاهجا بالشكر والحمد والثناء لربه العطوف الرحيم، الوهاب الكريم.

لم يقلل القرآن الكريم من رؤيا يوسف لطفولته وحداثة سنه، فالأسرار الروحية أيقظت فيه الرجولة المبكرة التى تتحمل الأمانة رغم صغر السن ونعومة الأظافر. وأردف الأب بعدما ألهمه الله فك رموز الرؤيا موضحا أن الشمس ترمز للأب، والقمر يرمز للأم، والكواكب ترمز لإخوة يوسف، وقد سجدوا جميعا ليوسف عليه السلام.

ويؤكد القرآن أهمية الرؤيا فى عالم العلم اللدنى، الكاشف للغيب والمظهر للحقيقة، وذلك هو الدين القيم الذى يخترق الحجب ويكشف الغيب، حتى لا يبقى إلا غيب الله المكنون." عَـٰلِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ " (الجن: ٢٦-٢٧)، وبذلك يتحقق الأب سيدنا يعقوب من مكانة ابنه الروحية، وتلك من علامات وأمارات النبوة وإحسان وعطف ورحمة الله عليه فى الدنيا وفى الآخرة، كما يطمئن الأب بأن لابنه

شأنا عظيما، وأن بيت النبوة سيستمر فى رسالته للدفاع عن الإنسان والعمل على تكريمه، من خلال الدعوة الدينية المباركة.

قَالَ يَـٰبُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ لِلإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُبِينٌ

ومن خلال الرؤيا الصادقة، والتأويل الحكيم، يتحدث الأب ناصحا ابنه بعدم الإفصاح عن هذه الرؤيا، وذلك التأويل الذى كشف عن المكانة العظيمة، التى تنتظر يوسف عليه السلام، وذلك باختيار الله له لميراث النبوة فى بيت يعقوب العريق، وهذا قد يصيب إخوته بالحقد عليه، والغيرة الشديدة منه. وعلى يوسف أن يستعين بالصبر والكتمان، وتلك حكمة من حكم أسرار الحياة الروحية، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم " استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود".(الطبرانى) ويبدو أن يعقوب كان حريصا على عدم تفشى الغيرة بين أبنائه، كما كان يتوقع غضبهم على يوسف، وتلك شفافية واضحة وبصيرة نافذة، تجعله دائما يتحلى بالفطنة الروحية وبعد النظر، وليكون على حذر، ولو أن الحذر لا يمنع القدر.

ولقد أوضحت الآية القرآنية أنه بمجرد تواجد الغيرة والحسد والحقد فى القلوب، تكون الفرصة مهيأة لاستدعاء شيطان النفس، بل ودعوته للإقامة فيها، فليحرص الإنسان دائما على عدم تمكين الشيطان منه، من خلال الميل للكذب والنميمة والخيانة والعدوان، وليعلم الإنسان أن عدوه الوحيد هو الشيطان، وقد يكون الإنسان فى أحواله السيئة هو الشيطان بعينه حينما يوسوس إلى نفسه، كما قد يكون أيضا شيطانا لغيره، وليعلم الإنسان أن كل ما لا يرتضيه الله يعتبر من قبيل الأعمال الشيطانية الضارة بالإنسان وحياته، ومن هنا يجد الشيطان الملجأ الذى يأويه فى نفس الإنسان، فتحجب النفس عن نور شمس هداية الله سبحانه وتعالى.

ورغم ظلمة النفس بفقدانها النور الذى يجعلها تفرق بين الحق والباطل، والظلم والعدل، إلا أن احتواءها للشيطان يعطيها لذة الشهوة والعدوان لتبذر على الأرض شرورها كما تقتلع فى

نفس الوقت جذور الخير فيها، وتلك هى معاناة الإنسان وتضرره من الحياة، وقد خلقها الله جميلة ورائعة.

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

إن الإشراقات الروحية التى يتمتع بها يعقوب عليه السلام تعطيه بعدا علميا عاليا، محلقا فى آفاق الغيب، وقائما على قواعد من الحكمة، وفى عينيه نور يخترق الحجب، وفى قلبه إلهام يفيض بالحقائق، ويتابع يعقوب عليه السلام حديثه لابنه يوسف، موضحا له سمو المقام ورفعة المنزلة باختيار الله له، واصطفائه على سائر الخلق فى زمنه، وذلك ليحمل الرسالة ويكلف بالدعوة التى تقوم على الاعتقاد فى الله، واتباع تعاليمه وأوامره، ومجرد أن يحدث الاختيار والاصطفاء، يتولاه الله بالتربية، ويرعاه بالأدب، ويبصره بالعلم والحقائق، وهنا تكاد مهمة أبيه يعقوب فيما يختص بتربيته ورعايته أن تنتهى، أو بمعنى آخر أن يعقوب عليه السلام أسلم ابنه لله سبحانه وتعالى، ولم يعد يحمل له هما أو مسئولية، واكتفى بالله وكيلا.

ويفرح الأب من قلبه، حينما يرى الأمل وقد تحقق فى أصغر أبنائه، وأن يوسف عليه السلام أصبح من أهل البيت، وأن يعقوب عليه السلام أصبح له ابنا يحمل الأمانة، ويواصل نشر الدعوة الروحية لهداية البشر للحق والعدل والرحمة.

ويواصل سيدنا يعقوب حديثه، لابنه سيدنا يوسف، بكلمات فيها الأنوار والثقة والمعرفة

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ.

إن الله اصطفاك واختارك، وهذا هو معنى الاجتباء، وحينما يختارك ويصطفيك، سيعلمك من علومه وأسراره، ويعلمك من تأويل الأحاديث، وكل ما يغمض على الناس ويجهلونه من العلوم الغيبية. وكانت تلك الكلمات تعبر عن آمال ودعوات يعقوب عليه السلام ، وفى نفس الوقت تداعب تلك الكلمات قلب سيدنا يوسف، وتشرح صدره بمنزلة الاصطفاء والاجتباء التى أنعم الله بها عليه، وتلك من بركات السماء واستجابات الدعاء، وأن آل

يعقوب قد جعلهم الله خلفاء فى هذه الأرض يتعاقبون عليها إلى ما شاء الله، وأن ذلك ليس مثارا للتعجب بل أدعى إلى التحقق من خلال رسالات السماء التى اصطفت الآباء من الرسل والأنبياء باختيار الله لسيدنا إبراهيم ومن بعده إسحاق عليهما السلام، فليحمل يوسف الأمانة، وليبلغ الرسالة بقدر من ربه العليم بأمره فى إرادته وحكمته.

ويركز القرآن الكريم في سورة يوسف على ما يعترى النفوس من أحقاد ومزاعم خاطئة، لا تصيب عامة الناس فقط، ولكنها تتخطاهم لتصيب أبناء الرسل والأنبياء. وضرب الله مثلا لذلك فى قصة ابن نوح، حينما تنكر لدعوة أبيه نوح عليه السلام وارتبط بالخصوم والأعداء والكافرين بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى. ويتنكر إخوة يوسف لأبيهم دون أدنى تقدير للتربية والرعاية، وفى ذلك بلاء شديد وجزاء ظالم لا يستحقه الأب من أبنائه، وإن كان دفاعهم يوهم بأن الأب يفضل ابنا على إخوته، فما ذنب الأخ ليجتمع عليه كل إخوته لمحاولة التخلص منه بأى شكل من الأشكال، سواء أكان بقتله أم بنفيه من الأرض، حتى يتحسر الأب على ابنه، وبذلك يُشفى غليل الأبناء، ولو أدى ذلك إلى تعاسة الأب وحزنه الشديد وحسرته على فقد ابنه، فأى حملة ظالمة يقودها أبناء يعقوب وإخوة يوسف من داخل بيت النبوة ، وهذا وحده ما يدمى القلب ويجرح النفس، ولكنه قبل كل شيء وبعد كل شيء بلاء واختبار على كل من يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام، وقد دفع الحقد إخوة يوسف للاجتماع تحت سيطرة الشيطان، بعيدا عن مثل ومبادئ بيت النبوة. ويحرك الشيطان فى نفوس الإخوة الشر، بعدما كانوا يعيشون فى بيت أبيهم على الخير، والشر يدعوهم الى الاجتماع والتباحث فى الغدر بيوسف. وليت المصائب تأتى من أقوام لا صلة بينهم، ولكن المصائب حينما تأتى من أقرب الناس، فإن ذلك يعنى الحسرة الشديدة، والحزن العميق، والظلم الفادح، ويقول الله تعالى:

لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ

فاذا ماتساءل الناس عن الأحقاد من أين تأتى؟ سيجيب القرآن إنها تأتى من الأنفس المريضة، التى لم تقدر الرعاية والعلم فى بيت النبوة، ورغم ما كان عليه إخوة يوسف من أخوة، إلا أن نفوسهم كانت تستعر بنيران الحقد، كما تتأجج قلوبهم بالعداوة والبغضاء.

ولم يكن يوسف عليه السلام وحده فى هذا البلاء، حتى أبوه لم يسلم من أذى أبنائه وحقدهم عليه، فلقد التقى يوسف عليه السلام وأبوه فى الطريق إلى الله، والتقيا أيضا تحت وطء المحنة، فيوسف عليه السلام يعانى من إخوته، ويعقوب عليه السلام يعانى من أبنائه، وهكذا كان اللقاء على السراء والضراء.

وحينما اجتمع إخوة يوسف انطلقت الرغبات الآثمة من عقال نفوسهم المظلمة، وكأن سموما تطايرت من فم أفعى خطيرة، وبدأ الحديث من خلال اجتماع مشحون بالغضب والحقد الشديد على يوسف ومكانته عند أبيه، فيقول الله سبحانه وتعالى:

إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

الأوهام الكاذبة

وبدأ الاجتماع بتصوير أوهام كاذبة تخلو من الحقيقة وادعاءات باطلة تستهدف اتهام أبيهم بعدم العدالة واهتمامه بيوسف، وعدم اهتمامه بهم كأبناء، يجب أن يتساووا فى المعاملة والاهتمام، وخاصة من الأب، فاتهموا أباهم بانحيازه إلى يوسف وتركه إياهم، بينما هم عصبة قوية تستطيع أن تنال من يوسف وأبيه. ومن خلال الدوافع الشريرة فى النفوس الملتهبة بالغضب والحقد والغيرة، اتهموا أباهم بأنه قد ضل ضلالا واضحا كما جاء فى قول الله تعالى

إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

ولم يكترثوا بأنهم يتحدثون عن أبيهم، وأن أباهم نبى قد اصطفاه الله واختاره، وأن بيت النبوة يجب أن يستمر فاتحا أبوابه من أجل تبصير العقول، وتهدئة النفوس، وإرساء الأمن والطمأنينة والسلام بين الناس أجمعين.

ولكن عمى القلب أظلم فى عيونهم رسالة بيت النبوة، وكل رؤية أو بصيرة، حتى فكروا فى ارتكاب الجرائم كالاختطاف والقتل والقذف والسب، وذلك لأقرب إنسان لهم، سواء أكان ذلك الإنسان هو الأب المرموق أم الأخ الحليم.

اقتلوا يوسف

وتتابع آيات القرآن الكريم حوار إخوة يوسف بقول الله تعالى:

اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَٰلِحِينَ

تدخل الشيطان بينهم وتسرب إلى نفوسهم وتحكم فى عقولهم، فارتفع صوت الشيطان من أفواه أبناء نبى، وأعلن هذا الصوت أنه ينصح الإخوة بالقضاء على يوسف، بقتله أو نفيه أوإقصائه إلى مكان بعيد، ليتخلصوا منه ويستحوذوا على عطف وحب أبيهم وحدهم، وباختفاء يوسف تنصلح الأمور ولن يكون هناك ما يعكر الصفو، وبالتالى تعود علاقتهم بأبيهم على نحو ما يشتهون، وينالون محبة أبيهم وتقديره لهم، واعتقدوا أن بعض الخطايا قد تصلح الأحوال، وهذا فكر خاطئ يتشابه ومقولة "إن بعضا من الخمر يصلح المعدة ".وهذا ترويج للمبادئ الهدامة والنزعات الشيطانية. وليت إخوة يوسف قد تنافسوا على حب الخير بدلا من اعتزامهم اقتراف الآثام وارتكاب المعاصى والذنوب.

وهكذا نرى أن ما حدث بين إخوة يوسف يتكرر فى أحوال ارتكاب الجرائم التى تسول لمرتكبيها أن الجريمة قد تفيد، كمن يدعى خطأ بأن السرقة من الأعمال النافعة لمرتكبيها. فكل تبرير خاطئ وراءه شيطان رجيم يسكن فى النفس المريضة، وعلى الإنسان السوى أن يخالف شهوات نفسه ورغباتها المجحفة وتطلعاتها الفاسدة، ولا يتأتى ذلك إلا بالخضوع لمنطق العقل والتمسك بالأخلاق الكريمة والالتزام بطهارة النفس وسلامة القلب.

إن التأمل فى معانى القرآن الرائعة وأحداثه البالغة فى هذه الآية الكريمة قد بين لنا موقعين للنفس الإنسانية، حيث إخوة يوسف فى موقع النفس الأمارة بالسوء، بينما كان يوسف فى نفس الوقت فى موقع النفس المطمئنة.

وللنفس المطمئنة إلهامات وإشراقات، لا سيما إذا استشعرت الخطر، فإنها تتحصن بطمأنينتها وحلمها، لأن ما يصيب الإنسان قدر مكتوب عليه، ويعلم يوسف عليه السلام أنه إذا كتب عليه قدر فإن القدر يمهل الإنسان حتى يتحقق، ومادام الإنسان له دور قادم مع القدر فهو

محفوظ حتى يقع القدر، وذلك هو الإيمان بقضاء الله وقدره، وأن ألطاف الله تطوف فى قلب يوسف، وذلك تعبير عن مدى قناعته وإيمانه الراسخ باعتماده وتوكله على الله، فهذا هو يوسف فى مكانته الروحية، وهؤلاء هم إخوته وقد امتلأت نفوسهم بالحقد والحسد.

وهنا تجدر الملاحظة للتأمل فى النفس الإنسانية وتقلباتها، وأن الاستسلام لوسوسة الشيطان يقتل معانى المروءة والإنسانية فى الإنسان، وأن مخالفة النفس لشهواتها ومفاسدها يُحيى فى الإنسان الأخلاق التى تدعو إلى الحب والتسامح.

ومن ألطاف الله على يوسف عليه السلام أن محا عنه قدر قتله، وذلك حينما أنطق أحد إخوته بالنصيحة التى تدعو إلى عدم قتل يوسف والاكتفاء بإلقائه فى البئر غير مستهدف غرقه أو موته، مبررا ذلك بأنه قد يلتقطه أحد المسافرين أو العابرين ويذهب به إلى بلدة بعيدة حتى تستريح نفوس إخوته لإحساسهم الخاطئ بأن أباهم يؤثر يوسف بحبه وعطفه، وبذلك تتحقق مآرب إخوة يوسف، وعلى الجانب الآخر ينقذ الله يوسف من بين أيديهم.

لا تقتلوا يوسف

قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ

وهكذا تتبدل الأقدار وتتحول، وتلك حقيقة الحفظ، حيث يقول الله تعالى فى كتابه العزيز " يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَٰبِ" (الرعد:٣٩). فإنقاذ الله ليوسف كان فى لحظة سريعة غيرت من مجرى الأحداث حيث اعتزم إخوته قتله، وإذا بكلمة تخرج من أحدهم تقول لا تقتلوا يوسف.

وهكذا حدث التغير المفاجئ من حال إلى حال، فالله هو رب اللحظة، كما أنه رب المشرق والمغرب ورب المشرقين والمغربين، ورب المشارق والمغارب، ولحظة التغيير تدعونا إلى التأمل فيما جرت به المقادير، إنها لحظات تغير الأقدار، مثلما حدث فى لحظة إلقاء سيدنا إبراهيم فى النار، وكيف أن الله سبحانه وتعالى نجاه من لهيبها وحريقها حيث أشعل قومه نارا عظيمة

لإحراقه عليه السلام جزاء له على تحطيمه للأصنام، فتجلى الله باسمه المصور على تلك النار فاتسعت دائرتها وظن قومه هؤلاء أنها نيرانهم، فلما ألقى بسيدنا إبراهيم فى النار وقع فى نار اللطف الإلهى ولم يقع فى نار حقدهم، وتلك لحظة حاسمة قال الله فيها "يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ" (الأنبياء: ٦٩)، وتلك من أسرار الله وألطافه وحفظه.

وكذلك الله هو رب اللحظة التى ألقى فيها بسيدنا يونس فى البحر التى فيها هلاكه، فإما أن يبتلعه البحر وإما أن يبتلعه حوت مفترس، فكانت اللحظة التى التقمه فيها أحد الحيتان الأليفة بفمه ليلقى به نحو الشاطئ، وكان هذا راجعا إلى ما كان عليه يونس من تسبيح وتعظيم دائمين لله، ولولا تسبيحه هذا لابتلعه حوت آخر حتى يبعث الله من فى القبور يوم القيامة، لذا يعبر القرآن الكريم عن هذه اللحظة بقول الله تعالى " فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ* لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ" (الصافات: ١٤٣-١٤٤). وهكذا كانت اللحظة التى ألقى فيها يونس هى نفس اللحظة التى مر فيها ذلك الحوت المختار من الله، وتبقى دائما اللحظة الحاسمة فى حياة الإنسان والممثلة لأقدار الله سبحانه وتعالى.

تحايل إخوة يوسف على أبيهم

وبدأت المؤامرة على يوسف عليه السلام بالتحايل على أبيه سيدنا يعقوب عليه السلام، ويبين لنا القرآن الكريم كيف تكون صيغة التحايل فى قول الله تعالى

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ

أيرفض سيدنا يعقوب تحايلهم هذا أم يقبله؟ رغم إحساسه الصادق بأنهم حاقدون على يوسف وكارهون له، وقد يضطر الإنسان إلى أن يوافق على أمر من الأمور، رغم عدم رضائه الكامل، ولذلك فإن كلمة نعم لا تعنى الموافقة التامة، بينما تكون كلمة لا أكثر منها حسما وقطعا فى التعبير عن الرفض، وكانت موافقة يعقوب عليه السلام لأبنائه تحمل فى طياتها كل المخاوف

والمحاذير، وصوت قلبه يناديه من أعماقه ألا يستجيب، فلم يدفعه إلى الاستجابة لهم إلا إيمانه بقضاء الله وقدره، فرؤية العقل عنده لا تكتمل إلا برؤية القلب وصولا إلى الحكمة التى تدعو إلى ضرورة التسليم بقضاء الله وقدره.

والحديث عن يوسف عليه السلام جذبنا إلى يعقوب عليه السلام، وذلك لقاء روحى جمع ما بين نبيين، واتسع المكان لاستقبال روح وثابة وقوية تتمثل فى شخصية سيدنا إبراهيم عليه السلام، حيث تؤكد مواقفه إيمانه القلبى، وأصبح من المحتم أن نتعرض إلى مواقفه، وليس ذلك بخروج عن موضوع يوسف عليه السلام، فالجو الروحى يسمح بحشد من الرسل والأنبياء، وهاهو سيدنا إبراهيم يطل بذكرياته التاريخية والروحية لتتضح الصورة الإيمانية الكاملة.

وليكن أول أحداثه عليه السلام حينما أمره الله بذبح ابنه، فانقاد لصوت القلب فى أعماقه، وأيقن أن الإسلام هو الانقياد لله سبحانه وتعالى، وتلك هى مواقف الأنبياء ومدركاتهم الخفية وإيمانهم بإلهام القلب، حتى ولو خالف ذلك منطق العقل، وتلك حكمة بالغة أدركها سيدنا إبراهيم بحسه وفهمه بما ألهمه الله وأوحى به إلى قلبه، حيث يعبر القرآن عن معنى الإسلام عند سيدنا إبراهيم عليه السلام بقول الله تعالى:

إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (البقرة:١٣١).

وعلم سيدنا إبراهيم أن كلمة اذبح ابنك مثل كلمة أسلم، وكلمة أسلم أى حطم الأصنام، وكلمة أسلم تعنى ارحل واترك زوجتك وابنك حتى ولو كانا بواد غير ذى زرع.

فيعقوب عليه السلام ليس غريبا عن هذه المدرسة وأحوالها، فهو منشئ البيت اليعقوبى والذى تخرج فيه أنبياء بنى إسرائيل جميعا، فحينما يتخلى يعقوب عن ابنه يوسف ويتركه مع إخوته فإنه يعلم أن الله لن يتخلى عنه ولن يتركه، وتلك هى نوعية إيمانه بقضاء الله وقدره، ودفعه ذلك الإيمان إلى اعتقاده بأن أمله فى يوسف لن يخيب، وخفق قلبه بالدعاء لله ومناجاته فى تلك اللحظات الحاسمة التى تفرق بين ابن وأبيه، ليعينه الله على محنته المنتظرة بالصبر والصلاة والتسليم الكامل.

وعلى الجانب الآخر يؤمن يعقوب بأن ابنه سيواجه الأحداث والأقدار وأن رسالته القادمة هى وحدها ستكون سببا فى حفظ الله له، وتلك أحاسيس الرسل والأنبياء وأولياء الله الصالحين، بأن الله سبحانه وتعالى معهم دائما فى السراء والضراء.

ويسترجع يعقوب توسل أبنائه له وما توصلوا إليه من مكر وخداع، وتلك مدرسة أخرى تختلف تماما عن مدرسته الروحية، فلا تزال كلماتهم تعاود يعقوب عليه السلام بين الحين والحين.

ويفكر يعقوب فى موقف أبنائه وتسللهم لإقناعه، وإن كانت كلماتهم ليست إلا وسوسة شيطان رجيم، فإن سوء ظنهم بأبيهم وحقدهم على أخيهم كان هو المنفذ الوحيد الذى سمح للشيطان بأن يتسرب إلى قلوبهم ويوجههم إلى طريق الشر، وهو ليس طريقهم، فما أبخس ما باعوا وما أبخس ما اشتروا، فلقد اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، فقد اكتسبوا خداع النفس وزين لهم الشيطان الكذب، والكذب من المعاصى التى تضعف الإيمان وتحجبه.

ولذلك حينما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم " هل المؤمن يكون جبانا؟ قال: نعم، قيل: هل يكون بخيلا؟ قال: نعم، قيل : هل يكون كذابا؟ قال: لا "(الإمام أحمد). فالكذب هو الخلق السيىء الذى يجذب الشيطان ويدعوه ليدخل من باب النفس الأمارة بالسوء، وإن ضرره ينصب على إفساد العلاقات الاجتماعية وطرح الثقة بين الناس بعضهم البعض، مما يؤدى إلى تفكك المجتمع وتصدعه تمهيدا لهدمه وفنائه، وهو شريك كامل لكل العوامل المؤدية إلى زوال الحضارات.

وقد بينت الآيات القرآنية كيف أن الكذب طبيعة مؤثرة فهو خداع للنفس وسحر للعيون، وكما جاء فى قصة موسى عليه السلام وفرعون أن السحرة سحروا أعين الناس وأصابوهم بالخوف بما فعلوه "قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقُواْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ" (الأعراف: ١١٦)، وكان ذلك من نوعية الكذب والخداع الذى يلبس ثوب الحقيقة والحقيقة منه براء، وكم من حقائق مزيفة تنخدع لها أفكار الناس وعقولهم من خلال الكذب، والكاذب هو الساحر الذى يسحر عيون الناس وعقولهم، ويترتب على ذلك فقدان الرؤية الحقيقية والإضرار بمصالح الناس وعلاقاتهم الاجتماعية.

ومن أجل ذلك فإن رسالة الرسل والأنبياء تنصب على محاربة الكذب مع ضرورة الالتزام بالصدق مهما كانت عواقب الأمور، فلا يعدو الكذب إلا أن يكون كذبا على الله وخداعا

للناس، لاسيما إذا تعلق الكذب بالحكام وأصحاب الجاه والسلطان، والذين لهم دور في التأثير على عقلية الشعوب ومصائر البشر، ومن أبرز ما أشار إليه القرآن وصولا إلى ما تقدم عن خطورة الكذب هم هؤلاء الذين يكذبون على الله حتى ولو لبسوا ثوب المصلحين، ويحذر الله في هذا الشأن بقوله تعالى "وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَٰلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ" (النحل: ١١٦).

وكذلك هؤلاء الذين يكذبون الرسل ليحاربوا الفضيلة، وليستمروا في ظلم الناس واستعبادهم، فيحولون بين الرسل وبين الناس من خلال تشويه الحقائق وافتراء الكذب، وكما يفرق الكاذب بين الناس بعضهم البعض، يفرق الساحر بين المرء وزوجه، فالسحر والكذب صنوان، فمن يقول الكذب كمن يعمل بالسحر، وهذا من أكبر الكبائر عند الله سبحانه وتعالى.

فأسلوب الساحر والكاذب بدأ به إخوة يوسف حينما تظاهروا بالبراءة لخداع أبيهم من خلال كلمات كاذبة أو معسولة، كما قال الشاعر "يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب ". فليحذر الإنسان من أمثال تلك الكلمات الكاذبة حتى لا يضل أو يشقى.

ومن سوء ما ذهب إليه إخوة يوسف أن استخدموا منطق الكذب والتلفيق لإظهار عواطف كاذبة وخادعة ليؤكدوا لأبيهم اهتمامهم وحرصهم على أخيهم الصغير، وذلك لاستمالته وموافقته لهم باصطحاب يوسف إلى حيث يذهبون، ويعقوب عليه السلام ينظر إليهم ويتأمل وجوههم ويستمع إلى حديثهم، وقد خرجت كلمة يوسف من أفواههم برقة متناهية وعذوبة واضحة، حينما قالوا له " مَالَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَٰصِحُونَ"، يؤكدون ليعقوب عليه السلام بالكذب والتحايل أنهم خير من يحافظ على يوسف، فطمأنوا أباهم بأنهم من الناصحين ولن يغفلوا عن يوسف.

وهكذا نجد أن أساليب الخداع والتحايل والكذب قد اجتمعت كلها في إخوة يوسف ليتخلصوا من أخيهم هذا ويبعدوه عن أبيهم، وذلك حينما سمحوا للشيطان أن يدخل إلى

قلوبهم مستعينا بما زرعوه فى أنفسهم مـن حقـد علـى يوسـف، وبالتـالى فقـدوا صـوت العقـل وعاطفة القلب، فكان البديل هو وسوسة الشيطان الذى لا يقتحم صدور الناس ونفوسـهم إلا إذا مرضت القلوب وضعفت النفوس، فتغلق نوافذ الرحمة وتبقى نافذة يطل منها الشيطان على النفس الإنسانية، وبالتالى يحتجب الإنسان عن نور الله بما صنعه بيديه.

واستطرد إخوة يوسف فى غيهم هذا، وفى كذبهم على أبيهم وهم يتجملون بأنهم أكثر عاطفة وحبا لأخيهم يوسف عليه السلام، ويأملون أن يأخذوه إلى رحلة يستمتع بها ويمضى يوما سعيدا لما تحققه الرحلات من هدوء للنفس وراحة للإنسان المتعب، ولذلك جاءوا من هذا البـاب المريـح ليقولوا لأبيهم:

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ

من خلال رؤيتنا القرآنية لهذا المشهد التمثيلى لإخوة يوسف فى مخاطبتهم لأبيهم، حيث رجوه بأن يرسل معهم يوسف ليشاركهم متعة اللعب والانطلاق بين المروج والأشجار، وهـذا عـرض لا يرفضه أب لابن بار مثل يوسف عليه السلام، فلـو قـالوا لـه أرسـله معنـا غـدا ليعمـل ويشـقى، لرفض سيدنا يعقوب عليه السلام مطلبهم هذا، ويبدو أن اللعـب والمرح لا يقاومـه إنسـان سـوى تذكر طفولته حينما كان يمرح مع أقرانـه ويتسـابق. وذاك مـا يجـب أن يسـجل ليكـون عنوانـا واضحا لرياض الأطفال، وما يجب أن تتمتع به الطفولة من خلال تربيتها ورعايتها.

وحينما لاحظ أبناء يعقوب أن أباهم لا يثق فى قولهم هذا بادروه بقولهم كمـا جـاء فـى قـول الله تعالى "وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ". فى الآية السابقة قالوا: " وَإِنَّـا لَـهُۥ لَنَـٰصِحُونَ"، وهـم أكثر كذبا، ثم عاد الكذب مرات ومرات، إلى أن انتهت الآية القرآنية بكذبهم الفاضح حينمـا قالوا:" وإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ".

واستطرد سيدنا يعقوب قائلا كما فى قول الله تعالى

قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ

وتفجرت المعانى الصادقة من قلب يعقوب عليه السلام، لتخرج على لسانه بحديث الصـدق الـذى يعتريه، بأن غياب ابنه الحليم يوسف عن عينيه إنما يصيبه بالحزن والأسى، وكأنه قد اسـتمع إلى

ما أسروه فى أنفسهم من ضرورة إبعاد يوسف، وتلك من العلوم الغيبيةالتى يعبر عنها عند الصوفية بكلمة المكاشفة، وتعمق فى حديثه هذا سابحا فى أغوار وأعماق الحقيقة، ليكشف لهم عن مؤامرة حاكوها فى الظلام وفى السر، وتلك من أسرار الفطنة الروحية للمؤمن، والفطنة هنا تشير إلى عالم الغيب وكيف تتحول الأسرار التى كانت غيبية إلى حقائق واضحة عند أهل البصيرة.

ويعقوب رأس الرسالة اليهودية وكل أنبياء بنى إسرائيل جاءوا من عباءة يعقوب عليه السلام، ولذلك يلقب يعقوب فى القرآن الكريم بإسرائيل كما جاء فى قول الله تعالى "إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَآءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ"(آل عمران: ٩٣)فجاءت هذه الكلمات فى القرآن الكريم لتؤكد أن يعقوب هو إسرائيل، وأن أنبياء بنى إسرائيل هم الأبناء الروحانيون ليعقوب عليه السلام، وأن أبناء الجسد ليس بالضرورة أن يكونوا أبناء، فابن نوح عليه السلام هو ابن الجسد وليس ابنا روحيا كما جاء فى قوله تعالى "قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ"(هود: ٤٦). فسيدنا يعقوب عليه السلام كان له دعاء يأمل فيه ألا يغلق بيت النبوة من بعده، وقد تحقق دعاؤه حيث كان المسيح عليه السلام هو آخر أنبياء بنى إسرائيل، ثم اصطفى الله رسوله محمدا ليصل كل بيوت النبوة ويؤمن بها، وهذا ما كانت تعنيه الدعوة المحمدية.

ويبدو أن ما تحدث به يعقوب عليه السلام كان مثار حديث بين الإخوة، فقد رتب الإخوة أمرا للتخلص من يوسف، واتفقوا أيضا على الحديث الذى سيقولونه لأبيهم بأن الذئب قد أكل يوسف، وظنوا أن هذا الترتيب سيكون فى طى الكتمان، فهو سر فيما بينهم، ولكن قلب سيدنا يعقوب عليه السلام استشعر ما أخفاه أبناؤه فى نفوسهم، وذلك من خلال شفافيته وتصديقه الدائم لمشاعره وأحاسيسه، تلك التى لا تخطئ ولا تضل.

فالمعرفة عند يعقوب عليه السلام هى معرفة القلب، وتلك لا تحتمل الخطأ، بينما المعرفة العقلية تحتمل الخطأ والصواب، وذلك إيمانه الصادق الذى آنسه فى حياته، بل ورافقه فى ليله ونهاره، ومع ذلك فقد تغلبت إنسانيته عليه فقد تدمع العين أحيانا، وهاهو يعقوب عليه السلام يستعطف أبناءه ليشفقوا عليه ولا يعرضوه للحزن والألم. فنبههم بادئ ذى بدء بقول الله تعالى "قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ".

وفي نفس الوقت قد يرى يعقوب أن للقدر سلطانا عليه وعلى يوسف وعلى أبنائـه، وعليـه أن يتقبل أقدار الله حتى ولو بـات مهموما حزينـا باكيـا، فقلبـه النـاصع يناديـه من الأعمـاق أن يطمئن، بينما إيمانه القوى يدعوه أن يتقبل قـدر إبعاد يوسـف، ترى أيهمـا يتغلب الاطمئنـان القلبى أم تقبل القدر؟ وما دام هو يعقوب فلن يهرب من الأقدار، وعليه أن يتحمـل وأن يـترك قلبه ليبقى تحت مظلة الرحمة الإلهية، وأنه لم يفتقد الرب، ويؤمن بأن الله لن يتخلى عنه بلطفه، مهما كانت الأحداث ومهما اشتدت به النكبات فإن هذا كله يهون أمام إرادة الله ومشيئته، وذلك هو إيمانه القوى بقضاء الله وقدره، ومع ذلك لا يتخلـى يعقـوب عـن إنسـانيته الرهيفـة وجسده الضعيف، وإن كانت عزائمه قوية، وروحه شفافة، ونفسـه زكيـة، إلا أنـه فـى النهايـة إنسان، يتألم كما يتألم الناس، ويبكى كما يبكـى المتضـررون، ولا يمكـن أن ينـتزع نفسـه مـن عالم الإنسانية، وإلا فإنه يسمح لنفسه أن يخلع رداء الإنسانية ليكون ملاكا أو يكون فى عيون الناس إلها يعبد، فعليه أن يتمسك دائما بإنسانيته التى تجزع وتفزع وتحزن، وعليـه أن يتحمـل قدره، ليهتدى الناس بهديه، ويؤمنوا بإنسانيته ونبوته.

ولا زال يعقوب يراود أبناءه بمكاشفتهم بالحقائق وما اجتمعوا عليه مـن مزاعـم كاذبـة، لعلهـم يعودون إلى صوابهم ويستشعرون مأساة أبيهم وأحزانه، ولعل الله سـبحانه وتعـالى يمحـو قـدرا قد أثبته عنده فى علمه فى أم الكتاب، كما جاء فى قول الله تعالى " يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَـٰبِ"(الرعد: ٣٩)، ولا يمحى القـدر إلا بعـودة الأبنـاء إلى طريـق الصواب والتراجع عن الظلم والمعصية.

ولكن يبدو أن القـدر كـان نـافذا لا محالـة ولا شـفاعة، ومـع ذلـك يكـرر علـى أسـماعهم مـا يستشعره من حزن وأسى، فيقول لهم:

وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ

هؤلاء الأبناء إن كانت قلوبهم من حجر فقد تلين بمثل هذه الكلمات الصادقـة، التـى تكشـف ماانطوت عليه النفوس من شر وحقد لأخيهم يوسف الرقيـق الشـفاف النقـى، ولكـن مـاالعمل وقد حال بينهم وبين أبيهم ظل الشيطان الرجيم، حجب عن قلوبهـم الرحمـة والشـفقة حتـى لا

يتراجعوا عن عزمهم المتفق عليه بإلقاء يوسف في بئر عميقة، حقا لقد حال الشيطان بينهم وبين أبيهم، وأغرقهم في بحر الظلمات، وأصبحوا من المغرقين. لقد غرقت الإنسانية، وانطفأت أنوار الهدى، واسودت القلوب، وتحول أبناء يعقوب إلى مجرد أجساد.

وهنا في هذه الآية القرآنية بدا واضحا أن وراء هذه الكلمات غيباً سوف يحدث داخل كيان سيدنا يعقوب عليه السلام، وسوف تثبت الآيات القرآنية بعد ذلك أن إخوة يوسف هؤلاء سيذهبون إلى أبيهم يعقوب ويقولون له ياأبانا إن الذئب أكل أخانا، فسيدنا يعقوب يتحدث من وراء الحجب ليكشف عن نواياهم الخبيثة، وفي نفس الوقت لا يتصدى لقدر أراده الله سبحانه وتعالى واجب التنفيذ، فيعلم أن هناك قدرا، وعلى المؤمن أن يؤمن دائما بالقضاء والقدر، قضى الله أمرا، فهذا من شأنه سبحانه وتعالى، وقدرنا هو مقابلة القضاء بالإيمان.

وما دامت الكلمة كلمة الله في الأولى والآخرة وفي البداية والنهاية، فإن هذا لن يخيف إنسانا مؤمنا من أقدار الله سبحانه وتعالى، فليفعل الله ما يشاء، ولن يجدى الجزع أو الخوف أو الاعتراض، طالما أن الأمر هو أمر الله سبحانه وتعالى، فعلى الإنسان أن يتقبل كل ما كتبه الله سبحانه وتعالى وأراده بنفس مطمئنة وقلب سليم، وباستقبال لكلمات الله سبحانه وتعالى وأقداره، وليس بتبرم أو امتعاض لما يحدث من أقدار، قد يرى الإنسان فيها من الشدائد والمصائب والويلات، ولكنه التسليم الذى يؤكد مصداقية الإيمان، ولابد من التسليم، فلا إيمان بدون تسليم.

فالتسليم هو حقيقة وجوهر الإيمان بالله سبحانه وتعالى، فسيدنا يعقوب عليه السلام في تسليم كامل، ولكن أنباء الغيب تراود قلبه، وتخرج على لسانه، ويتحدث إلى أبنائه قائلا :"قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ"، وهذا من النواحى النفسية للأب، شيء طبيعى أن يحزن لفراق ابنه ويفزع منه، ولا يمكن أن ننزع الأنبياء من بشريتهم، فإنهم يفرحون ويحزنون، يضحكون ويبكون.

فالتسليم المطلق والكامل كان في عمق إيمان سيدنا يعقوب عليه السلام، ولكنه كأب دعوه يتكلم وينصح ويبين وجهة نظره، فمن حقه أن يبكى كإنسان أو حتى يصرخ، وتلك هى النظرة الطبيعية أو التلقائية، فكل ما يدخل السرور على القلب يبتسم له الإنسان، وكل ما يقاسى منه

الإنسان يدعوه للحزن، وإلا فإن الإنسان الذى لا تؤثر فيه مشاعر الفرح أو الحزن فهو ليس من جنس البشر، فعلى الإنسان دائما أن يكون متفاعلا فى حياته، يفرح ويغضب ويضحك ويبكى دون تصنع.

ولا يزال يعقوب يراوده الحنين إلى يوسف، ففى لحظات الوداع تتكرر الكلمات والمعانى حيث خرجت الكلمات الرقيقة ذات العاطفة والحساسية الشديدة من قلب برىء طاهر يتحدث إلى بنيه لكى يترفقوا فى الأمر وهو يعلم أن من أبنائه هؤلاء من سيكون أول من يؤذى يوسف عليه السلام، فألقى على مسامعهم أن ابتعاد يوسف فى حد ذاته لا يسبب له السعادة وانشراح الصدر، بل إن فى ابتعاد يوسف عنه حزنا له حيث سيفتقده بعد أن كان ماثلا أمام عينيه.

ولكن يعقوب لم يلحظ من أبنائه بادرة تعبر عن تغير أفكارهم وماعتزموه، فلما رآهم على إصرارهم على اصطحاب يوسف معهم، أراد أن يطرح عليهم أمرا آخر ربما يتراجعون عن فكرهم الذى يصرون عليه، فقال لهم إنى أخاف عليه أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون فى لهوكم ولعبكم، ولكن أبناء يعقوب لم يدركوا أبعاد حديث أبيهم، وأصروا على الكيد ليوسف وأبيه، فقد تغلب الشر على قلوبهم وقادهم إلى خداع أبيهم، فللمكر والخديعة منطق وللشيطان مدخل يمكنه من السيطرة التامة على نفس الإنسان حتى لا يتراجع عما اعتزمه من أذى وضرر، وبهذا ينتصر الشيطان ويلحق الأذى بيعقوب ويوسف عليهما السلام، فما يصيبهما من ضر وأذى إنما هو كسب للشيطان وأعوانه. وهنا وسوس الشيطان إليهم حتى يقولوا لأبيهم كيف يأكله الذئب ونحن عصبة ولنا الكثرة والغلبة كما جاء فى القرآن الكريم:

قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ

إن حدث هذا فإننا جميعا لا يحق لنا أن نعيش، فلا نستحق الحياة، فإننا خاسرون فى حياتنا إذا كانت الأمور ستمضى بمثل ما تتوقع، فسلم الأب أمره لله وتوكل عليه انتظارا لتنفيذ القدر المحتوم.

وسرعان ما اصطحب الأبناء أخاهم يوسف إلى مكان الجريمة، وقد استحوذ عليهم الشيطان وملأ نفوسهم بالشر، فلم تستوقفهم النبرات الحزينة لصوت أبيهم، ولا وداعة أخيهم يوسف وطهر قلبه، فلقد تركوا زمام أمرهم للشيطان، والشيطان لا يمضى فى طريق تشوبه رحمة،

فالرحمة هى الطريق إلى الله، وحينما يتخلى القلب عن الرحمة يمتلئ بالقسوة والغضب وحب الانتقام. وهكذا يكون الكيد والغل والحسد فى قلوب الناس وكأنه نار تلتهم كل شيء أو إعصار مدمر يهدم كل شيء.

ومن خلال الأحداث تتضح المواقف وتبدو المعانى، فما ذهب إليه إخوة يوسف وارد من النفس التى استسلمت للشيطان، فالاستجابة للشيطان مرض نفسى ليس له شفاء إلا بمخالفة النفس عما تتجه إليه، وما تكنه من نوايا خبيثة وشريرة، حتى تتحقق الشفافية والمصارحة والطهارة.

ونستنتج من الحوار الذى دار بين يعقوب عليه السلام وأبنائه أن موقف إخوة يوسف يدل على أنهم لم يكونوا على مستوى الحكمة والتعقل، فالغيرة العمياء كانت دافع الانتقام ، فلم يجدوا حجة يتذرعون بها لإقناع أبيهم إلا ما علق فى أذهانهم من خلال مخاوف أبيهم أن يتركوا يوسف وحده فيأكله الذئب، وعلى الجانب الآخر فإن يعقوب عليه السلام كان يمتلك شفافية وبصيرة كشفت له التبريرات والتكهنات التى يمكن أن يلجأ إليها أبناؤه فى حال انتقامهم من يوسف، وأن الفارق بين يعقوب وأبنائه أنه فتح قلبه لله بينما سمح أبناؤه للشيطان أن يدخل قلوبهم رغم أنهم جميعا يعيشون فى بيئة واحدة.

ويبقى الدرس واضحا أن من يترك نفسه للشهوات والأهواء يسهل قياده من الشيطان ليوقعه فى المهالك والرذائل ويباعد بينه وبين الفضائل، لقد أصر إخوة يوسف على المضى فى طريق الشيطان رغم تحذيرات أبيهم ورغم اعترافهم بأنهم إذا ما تهاونوا فى الحفاظ على أخيهم ليأكله الذئب فإنهم يكونون من الخاسرين.

حقا لن يفلح قوم ولوا على أنفسهم شيطانا يقودهم، لقد استقر رأى إخوة يوسف على إلقائه فى البئر بدلا من قتله، وتلك رحمة بالغة من الله حافظت على يوسف حتى يتعامل مع أقدار الحياة، واصطحب هؤلاء الإخوة أخاهم، وانقاد يوسف مع إخوته الذين أظهروا أن اصطحابهم له هو من أجل أن يرتع ويلعب، ولكن يوسف مع حداثة سنه يتذكر تفسير أبيه لرؤياه، وذلك بتحذيره من إخوته هؤلاء.

ولا بد أن يوسف قد لاحظ همزاتهم وطار إلى سمعه بعض من كلماتهم، وأيقن بحاسته وإلهامه أنه مساق إلى قدر ما، ودارت فى نفسه كلمات وتساؤلات، وعلى الفور تأتيه الإجابات،

وهذا مااعتاده يوسف من خلال تعامله مع الله بالإلهام، ورغم أن إخوته قد اقتنعوا تماما بضرورة إلقائه فى البئر بدافع من حقدهم الدفين إلا أن الله فى المقابل كان يلقى بكلماته وطمأنينته على قلب يوسف حتى لا يفزع ولا يجزع من أمر الله.

وإذا كان يوسف قد اصطحب إخوة يكيدون له كيدا، فإنه على الجانب الآخر كان فى معية الله، وتلك هى الصحبة الحقة التى تحفظ يوسف وترعاه، وعلى الفور أخذ الإخوة يوسف وألقوه فى بئر عميقة رغم صغر سنه، وأيقن يوسف فى تلك اللحظات أن الله معه، فقد أنزل عليه سكينة من عنده أدخلته إلى حال التسليم والتوكل على الله، بل أكثر من هذا فإن الله سبحانه وتعالى وعده بأنه سيلتقى بإخوته فى يوم من الأيام وينبئهم بما فعلوه ، وقد ظنوا أنهم لن يلتقوا بيوسف مرة أخرى، ولكن إلهامات السماء نزلت على قلب يوسف عليه السلام لتؤكد له أن هناك لقاء محتوما بينه وبين إخوته كما يؤمن الإنسان بأن له لقاء مع الله فى الآخرة.

وبالرغم من الموقف العصيب والشدة والألم التى كان يعانى منهما يوسف عليه السلام لما لاقاه من أذى إخوته، إلا أنَّ قلبه كان مليئا بالثقة بأن الله سبحانه وتعالى سيحفظه من كل ضيق وشدة وينجيه من المهالك، ويطمئن قلبه بالسلامة ويعده بلقاء من أضروا به وباعوه وخانوه بالرغم من أنهم كانوا أمناء عليه، فيوسف أمانة يسألون عنها أمام أبيهم، فالطريق المعوج يسول للإنسان ألا يكون أمينا وألا يكون صادقا. ويوضح القرآن هذا اللقاء فى قول الله تعالى:

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

وجاءوا أباهم عشاء يبكون

فلما فعلوا الفعلة وأحدثوا الجريمة وخانوا الأمانة ذهبوا إلى أبيهم وفى عيونهم دموع الكذب والخداع، ويقول الله تعالى

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ

وعلى الإنسان دائما أن يحذر وألا يتأثر ببكاء الظالمين حتى يحكم بالعدل بين الناس، فقد عرف الناس من خلال طبيعة الحياة أنهم لا ينخدعون بدموع التماسيح.

وبدأ إخوة يوسف ينسجون كذبهم هذا ويسردون أباطيلهم لأبيهم متذرعين بأن الذئب قد أكل أخاهم، حيث يقول الله سبحانه وتعالى

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ

فلاحظوا أن أباهم لا يصدق هذا القول، وأن الكذب واضح على وجوههم وفى عيونهم، بل إن قلبه الحساس يحدثه بأنهم كاذبون، فلما نظر إليهم قرأوا ما يبدو على وجهه أو يريد أن يتحدث عنه فأسرعوا بقولهم

وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ

وهكذا عاتبوا أباهم على أنه لا يصدق حديثهم وتكاثروا عليه محاولين إقناعه بأنه دائما يكذبهم ولا يصدقهم، وللكذب أسلوب يقوم على الخداع والتلفيق، وكانت الحيلة التى يدللون بها على صدقهم أن قدموا لأبيهم قميص يوسف وقد تلوث بالدم، ويقول الله تعالى

وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ

ونظر يعقوب عليه السلام متأملا هذا القميص والذى عليه آثار الدماء وهو موقن تماما بأن هذه الدماء ليست دماء نبى ولا رجل صالح، فإن آثار الرسل والأنبياء والصالحين تكاد أن تتكلم وتتحدث عن نفسها، وهذا من طبيعة الآثار، فالجزىء الصغير له دلالة انتساب إلى الكل الكبير.

ويفسر ذلك ما قاله العارف بالله سيدى على السماك "إن رقعة قماش من ضريح تكشف عن حال صاحبه وما كان يتمتع به من درجات رفيعة عند الله"، وهذا جزء ضئيل من الأسرار التى يتمتع بها الكون.

فلم يجد يعقوب عليه السلام ما يصدقه فى هؤلاء الذين يريدون خداعه، وقال لهم لقد سولت لكم نفوسكم المنطوية على الشر قولا خبيثا لا يمكن أن أصدقه، ولسوف يتضح كذبكم هذا، وسأستعين بالصبر الجميل مع الله، حتى يعيننى على محنتى ويوفقنى على استمرار عبادتى وقربى

منه سبحانه وتعالى، واستعنت بالله العلى القدير، ويقينى بالله كبير، أنه سوف يظهركم بمظهر الكاذبين والمخادعين، فلننتظر رحلة الأيام بصبر وإيمان.

وهكذا كان سيدنا يعقوب فى حزنه وشدته على ابنه الذى لم يعد يتحسسه بيديه وينظر إليه بعينيه ويرى حال النبوة وصلاح النفس الإنسانية وأنوار الهدى، وجمال الوداعة والبراءة التى ترتسم على وجهه المشرق المتفائل فى هذه الحياة فبكل المقاييس والأوصاف كان يوسف بالقرب من أبيه جنة ومنة من الله سبحانه وتعالى.

وعلى الجانب الآخر كان يوسف بعيدا فى الصحراء يرتكن إلى جدار هذه البئر العميقة التى يقصدها المسافرون والعابرون للصحراء، وقد استعان بالله سبحانه وتعالى وأذعن لأمره منتظرا لفرج الله.

يوسف فى البئر

ويتابع القرآن الكريم لحظة بلحظة ما حدث ليوسف عليه السلام ومنذ أن ألقى فى البئر فالقرآن يركز على هذا الموقع، حيث ستلعب الأقدار دورا كبيرا فى من سيلتقط يوسف ويمضى به بعيدا عن هذه البلدة التى ألقى يوسف في أحد آبارها، ومن الذى سيلتقط يوسف ليمضى به إلى بر الأمان، هى نفس اللحظة التى مرت على يونس حينما ألقى به فى البحر المتلاطم الأمواج والعاصف، ونفس اللحظة التى ألقى فيها إبراهيم عليه السلام فى النار، ونفس اللحظة التى ألقى فيها موسى عليه السلام فى النهر، ونفس اللحظة التى مرت على الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه فى الغار حينما كان أعداؤه ينظرون إليه.

فحينما نتحدث عن لحظة مع يوسف عليه السلام قد أتت، هذه اللحظة وهو قابع فى البئر، من ياترى سوف يأتى أو قد لايأتى لإنقاذه أو رؤيته ثم تأتى اللحظة فيكون الآتى لهذه البئر أو الزائر لهذا المكان هو صاحب الحدث المؤثر على يوسف عليه السلام، هذه اللحظة يقول عنها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم:

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

وهكذا كان القدر، فقد تنسى قافلة أن تتزود بالماء ويكاد أن ينفد منها، فتبحث عن بئر قريبة لعلها تروى ظمأها وتسقى إبلها، فالتذكر والنسيان وارد مع الإنسان، وعلى ذلك ترتب الأقدار، فيوسف وحيد فى البئر وقافلة يحاصرها الظمأ، فلكى تصح المعادلة فلا بد من لقاء هذين الحدثين، وتلك أقدار الله يرتبها كيفما يشاء.

وأرسلت القافلة واحدا منها يبحث عن مصدر للماء، فإذا به يكتشف بئرا ويكتشف أن بها طفلا، فصاح فرحا كما جاء في قوله تعالى "قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ". وتطاير صوت الرجل إلى أسماع من كانوا معه، فأسرعوا على الفور مقبلين ليرووا ظمأهم ويملئوا آنيتهم، كما أنهم أخرجوا يوسف من البئر وأخذوه معهم.

ويخرج يوسف من مجهول إلى آخر، فإلى أين ستلقى به المقادير، وقد كان الزمن قاسيا على ذلك القلب الصغير، ولا شك أن يوسف فى محنة شديدة، وقد تخلى عنه الجميع، ولكن الله لن يتخلى عنه، وفى المحنة قد يعانى يوسف من لوعة الأيام وقسوة الفراق، فقد خرج عن دائرة اهتمام أبيه ونصحه وإرشاده، فالقافلة تسير ويضل يوسف طريق عودته، بينما توغلت القافلة فى دروب الصحراء.

وما أكثر ما تعانيه النفس حينما تستشعر الحيرة والضلال! ولعل فى ذلك درسا وحكمة للإنسان تجعله يبتعد عن كل ضلال، فإما أن يكون الإنسان على هدى وإما أن يكون فى ضلال، وهذا درس من دروس مدرسة النبوة.

وكان أكثر ما عايشه يوسف فى رحلته هذه بعد خروجه من البئر أنه فى نظر من أخرجوه من البئر لا يعدو إلا أن يكون بضاعة تباع وتشترى، فلم يعد حرا، وأصبح شأنه شأن السلع التى تتداول بين أيادى الناس.

فواحسرتاه على يوسف، ذلك الكريم بن الكريم، فلبس من الصبر رداء، فكان الصبر هو قميص يوسف الحقيقى، وهو واحد من ملابس التقوى.والحق أن جراح يوسف لا تزال لم تندمل منذ أن ألقى به فى البئر، وذلك تشريع خاطئ من إخوته لا تقابله عقوبة بعينها، وبذلك ألفى يوسف نفسه أنه قد وقع فى بئر أخرى، فقد بيع بثمن بخس، وأصبح سلعة تباع وتشترى، فاستمسك بحبل الله للخروج من تلك البئر السحيقة.

وهكذا كانت الأقدار مريرة عليه، وقد يتحمل الإنسان المحن والاختبارات وتبقى جراح النفس أشد إيلاما من جراح الجسد. وأسر يوسف في نفسه ما أصابه من ألم، خاصة حينما بيع بثمن بخس، وتلك قسوة لا يشعر بها إلا من يعانيها، وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى بقول الله تعالى

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ

يوسف فى القصر

أما الذى اشتراه، وهذا هو الحدث المؤثر، فقد كان إنسانا له قيمة لأنه كان حاكما ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم يوسف ليعيش فى بيت حاكم وليس فى بيت محكوم، فتألق يوسف فى حياة الحكومة ليعيش فى داخل قصر، وهذا أقرب الشبه بما كان عليه سيدنا موسى عليه السلام، فسيدنا موسى ألقى فى النهر وسيدنا يوسف ألقى فى البئر، وسيدنا موسى التقطه آل فرعون، وسيدنا يوسف اشتراه عزيز مصر وكلاهما تربى فى بيت فيه النعمة وفى قصر يمتلئ بالعسكر والحرس، فعاشا فى هذه القصور شأنهما شأن الأمراء وأصحاب الجاه والسلطان، وهذا من فضل الله ورحمته على كل من موسى وأم موسى وعلى يوسف وأبيه يعقوب عليهم السلام.

وتلك هى عناية الله سبحانه وتعالى بالإنسان الذى أراد له قدرا مؤثرا ومن أحداث الحياة التى يجب ألا تغيب عن أعين الناس وأبصارهم، وتلك هى الأقدار التى عايشها الأنبياء، فكما ذكرنا أن سيدنا يوسف قد ألقى فى البئر وأن سيدنا موسى قد ألقى فى النهر فسيدنا يونس ألقى أيضا فى البحر، وفى البحر الحيتان والأسماك المتوحشة، ولكن الله يحفظ يونس عليه السلام بأن يبعث إليه فى اللحظة المناسبة حوتا لطيفا لا يفتك به بل يودعه شاطئ الأمان، وأيضا يوسف عليه السلام أوقع فى البئر بفعل إخوته فأرسل الله إليه من يترفق به ويكرمه فى بيته، لذلك تترنم الكلمات وتنشد المعانى التى جاءت فى قول الله تعالى:

وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ

لقد تدفق الحب من الوهلة الأولى فى قلب عزيز مصر حينما أبصر يوسف عليه السلام فى طفولته، ويوسف فى طفولته وصباه كانت تلمع فى وجهه علامات وإشراقات النبوة ويتألق بجمال روحى يطغى على كل جمال، فكان له قبول ينفذ إلى القلوب وحضور يجذب العيون، وهذا سر توفيقه الدائم ونجاحه الباهر وسعادته الغامرة، وبذلك تأثر عزيز مصر وأحب يوسف عليه السلام، وتلك من الأسرار الخفية التى وهبها الله ليوسف عليه السلام.

وكان الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يتمتع أيضا بهذه السمة الروحية، فما من إنسان نظر إليه إلا وأطال نظره فى وجهه المشرق الجميل، وقد سئل أحد الذين أسلموا عن سر إسلامه فقال حينما نظرت إلى وجه الرسول وجدت بين عينيه الرحمة، فالناظر إلى هذه الوجوه المشرقة الناضرة يستشعر هدوء النفس وطمأنينة القلب، فتتملكه الرغبة فى حسن الاستماع ويدعوه القلب إلى حرارة اللقاء.

ولذا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد تلك المعانى الروحية التى تبدو من خلالها مشاهد الجمال والحب الإلهى، وقد ألقى الرسول الكريم الضوء على تلك المكانة الروحية التى يتمتع بها الرسل، كما يتمتع بها أيضا أولياء الله الصالحون، فقال فى حديثه الشريف: أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله "(الترمذى). فمتى تقع العين على وجه يمتلئ بالبراءة ويشع بالنور فذلك يدعو إلى حب الله وتذكره والعمل من أجل مرضاته.

فالنظر إلى يوسف، والنظر إلى سيدنا موسى، والنظر إلى المسيح، والنظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والنظر إلى أولياء الله الصالحين كل ذلك يكشف ويعبر عن أسرار قد تجلى الله بها على أحبائه وعلى رسله، وتلك من الأسرار المسماة بأسرار الجمال، والأسرار كثيرة، ففى هذه الآية القرآنية أسرار التمكين، ويقول الله تعالى: وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ.

وأسرار التمكين لا تجعل للأرض سلطانا على صاحب هذا السر، فللأرض البريق واللمعان والذهب والطمع والطغيان والجاه والسلطان، وكثير من الناس من يقع فى شهوة المال أو الجاه أو السلطان ويتعالى على الناس ويتأثر بما فى هذه الأرض من رغبات فاسدة وشهوات جامحة، ولكن هذه الشهوات التى تكون فى صورة النعم لن تغزو القلب المفعم بالجمال الإلهى ولن يغادر الإنسان المؤمن موقعه فى عبادته وقربه ومحبته لله فى مقابل شهوات الدنيا وإغوائها كما جاء فى قول الله تعالى "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ والبَنِينَ وَالقَنَٰطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ وَالْخَيلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَٰمِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَئَابِ "(آل عمران: ١٤)

فلا ينساق الإنسان وراء هذه الدنيا وجاهها وسلطانها وشهواتها، لتوقعه فى الظلم والطغيان، فقد تنقلب النعم إلى نقم تحول بين الإنسان وبين تمتعه بنعم الله، فلا يحصل إلا على متاع قليل لا يدوم كثيرا، بينما تتعقب الإنسان مظالمه وسيئاته فلا يبقى له إلا الحسرة والندم، فلا ينفع فى الأرض إلا الكلمة الطيبة والعمل الصالح، والله عنده حسن الثواب.

فأسرار التمكين تجعل الإنسان من الممكنين فى الأرض "الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ الأُمُورِ "(الحج:٤١). هؤلاء هم أصحاب التمكين الممكنين فى هذه الأرض والذين وقاهم الله فأصبحوا من المتقين، وقد من الله عليهم بالقبول واستجابة الدعاء وجنات النعيم، ومن أسرار التمكين أيضا أن تتآلف الأرض الطيبة مع الإنسان وتفكر فيه وتحميه وتدافع عنه وتفتديه.

ومن أمثلة ذلك ما حدث لسراقة وجواده حينما أراد أن يمسك بالرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن الأرض قامت بدورها فكانت أقدام الجواد تغوص فى رمالها حتى لا يتمكن من اللحاق بالرسول وصاحبه، فالإنسان الذى أحبه الله تحبه الأرض، والإنسان الذى يبغضه الله تبغضه الأرض، فحب الأرض وما عليها من خلائق لإنسان ما هو إلا تمكين له وتعضيد ورعاية، وكذلك السماء تحب الإنسان المؤمن، بل وتبكى عليه إن غاب عنها، بينما المبعدون عن الله فإن الأرض تكرههم والسماء تبغضهم وتكاد الكائنات ترفضهم وتنفر منهم كما جاء فى قول

الله تعالى "فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ" (الدخان: ٢٩) فالأرض تبكى على إنسان حين موته شهدت صلاحه وتقواه وركوعه وسجوده، وكذلك تبكى السماء التى كانت تسمع دعاءه وترى صلاحه وترصد خيره.

وهكذا أصبح يوسف من الممكنين، فلم تستطع شهوات الأرض وأطماعها وظلماتها ومشكلاتها أن تؤثر في يوسف أو تفرض سلطانها عليه، فهو البرىء والطاهر من كل إثم أو معصية، فكان الله معه فى السراء والضراء، حتى إذا وقع فى ضائقة أو ألمت به شدة كان فرج الله قريبا، ومن يتق الله فهو حسبه وجاء فى قول الله تعالى " وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا" (الطلاق: ٢،٣)، وقوله تعالى "وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا" (الطلاق:٤). وتلك هى رعاية الله وحفظه وصونه ليوسف عليه السلام.

وذهب الذى اشترى يوسف، ذلك الزوج، لامرأته ليحدثها من كل قلبه ويستعطفها بكلماته ونظراته ويقول لها: أكرمى مثواه، حافظى عليه، عامليه المعاملة الطيبة، احتضنى هذا الغلام الصغير لعله ينفعنا حينما نكبر وربما نتخذه ولدا يقوم بدوره فى يوم من الأيام، وتلك هى كلمات ذلك الزوج، وهو عزيز مصر لامرأته، هذه الكلمات ملأت الفراغ الذى يعانيه العزيز وزوجه، وبذلك لم يعد قلب الزوجة فارغا بل سكن يوسف فى قلبها، وخرجت الآية القرآنية لتوضح وتؤكد رعاية الله وتمكينه ليوسف فى وقت عصيب تلاحقه التقلبات وتغير الأوضاع والأحوال وذلك فى قول الله تعالى: "وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ".

فلقد ملأ الله قلب العزيز بالحب واطمأنت نفسه ليوسف فيتحدث ويقول لزوجته: أكرمى مثواه، وهذا تمكين من الله ليوسف. إنها كلمات زوج وقع فى حب يوسف بما له من جاذبية روحية تألقت على ذلك الوجه لكثرة توجهه إلى الله، وإن ما أوصى به زوجته من جهة أخرى يتفق وأقدار يوسف المستقبلة، ولا تزال أسرار التمكين تزرع فى يوسف الحب والصدق والود، وتملأ ساحته بالشفافية.

وتلك معانى الجمال الحقيقى كثمار للعبادة الصادقة، وقد حظيت بالقبول والرضا من الله سبحانه وتعالى، ولن تجزع نفس أيدها الله بولايته، وجاء ذلك جليا واضحا فى قوله تعالى "أَلآ إِنَّ أَوْلِيَـآءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ "(يونس:٦٢-٦٤).

ولا يزال يوسف سابحا فى بحر من التمكين الإلهى وقد من الله عليه من غيبه الذى يكشف أبعاد الحكمة وأعماق المعرفة، وهذا أمر قد يغيب عن كثيرين، ولكنه لا يغيب عن يوسف عليه السلام، وقد أصلت آيات القرآن تلك المعانى الروحية السامية بقوله تعالى " وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ

كلما ارتقت الحياة المدنية وتحضرت كلما صقلت المواهب الفكرية وكثر الجدل وتنوعت الأحاديث، فللمدينة حديث وللقصر أيضا حديث، لأن كل ما يفرض على الناس أو يطبق عليهم ما هو إلا من وحى تلك الأحاديث.

ويبدو أن قصر العزيز كان يشهد كثيرا من اللقاءات والاجتماعات يشارك فيها علية القوم كالأمراء والوزراء والقواد وأصحاب المواهب والملكات الفكرية ورجال الدين وطليعة من العلماء والحكماء، بخلاف ما تعج به أمثال هذه القصور من السهرات والحفلات، وكان ذلك هو مجتمع القصر الذى عايشه يوسف عن قرب.

ويبدو أن يوسف باحتكاكه بمجتمع القصر قد لفت الأنظار إليه من خلال رجاحة عقله وبعد نظره رغم صغر سنه، فأضاف إلى طبيعته الروحية ذات الشفافية والجاذبية احترام الآخرين له، ولقد فتح الله عليه بأن منَ عليه بالحكمة التى من شأنها التفوق على حكماء العصر الذين يستلهمون مواقفهم الحكيمة من خلال خبراتهم ومدركاتهم، فهى حكمة قائمة على العقل وحده.

ومع ذلك فقد تخطئ هذه الحكمة وقد تصيب، أما الحكمة الإلهية فلا تخطئ، لأنها تعتمد على تأويل الرؤى والاستنارة بإشارات ورموز ذات دلالات ومعان لا يعلم تأويلها إلا العلماء

الذين اصطفاهم الله واختارهم، فحكمتهم من وحى الغيب الذى لا يظهره الله إلا لمن ارتضى.

وهنا يجدر التفرقة بين حكيم استند على رؤيته العقلية وحكيم كشف الله له من الحقائق والمعارف والأسرار، فكان يوسف من هذا الصنف الأخير، لقد ظهر على يوسف عليه السلام تلك التعاليم الإلهية من خلال إجاباته وأقواله، ولفت ذلك نظر أقرب الناس إليه والمحتكين به، كأمثال امرأة العزيز، والتى سيكون لها الدور البالغ فى الاهتمام به وتقديره وحبه.

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

بعدما أمد الله يوسف بعلومه وأسراره تأكد له أن التأويل هو أساس الرؤيا الصادقة، فهو علم يعتمد على الإلهام والشفافية والفطنة الروحية، وهو بالنسبة ليوسف ومن على شاكلته ترجمة صادقة للإيمان بأقدار الله وكلماته، وهذا نوع من الفكر الروحى الذى يتقمص الدعاة المقربين إلى الله، فما من حدث أو أمر عارض إلا وقد تناوله ذلك الأسلوب الروحى الذى لا يمكن إهماله أو غض البصر عنه.

فالتعامل مع هذا الاتجاه الروحى يفرض على الإنسان ضرورة الاستماع إلى صوت القلب المدعم بالحكمة والبصيرة وحقيقة ما تنتهى إليه الأمور، وهذا يعنى أنه لا حيلة ولا مفر إلا بتغليب أمر الله حتى ولو خالف مااستقر عليه الفكر والعقل، ولا يتضح ذلك جليا إلا من خلال تتبع أحوال الرسل والأنبياء، كأمثال سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما أمره ربه بذبح ابنه، فعلى أى أساس يعتمد سيدنا إبراهيم، أهو العقل والفكر والمنطق، أم الوحى والإلهام والشفافية؟.

وتلك هى مدرسة الأنبياء التى تميزهم عن غيرهم من الناس، فهم يمتلكون العقل والفكر كما يمتلكون الوحى والإلهام والشفافية، فالقاعدة عندهم هى التوكل على الله والتسليم الكامل له، وهذا هو جوهر الإسلام عندهم، فكيف لا يكون الله غالبا على أمر يوسف، ومع ذلك فإن كثيرا من الناس لا يعلمون خاصية هذه العلاقة الفريدة ويتعاملون مع الرسل والأنبياء كتعاملهم مع المفكرين والفلاسفة.

وقد ظن كثيرون من الناس أن هناك ارتباطا وثيقا بين الفلسفات الدينية وبين مثل تلك الروحانيات الهائمة فى حياة الرسل والأنبياء وكذلك أولياء الله الصالحين... ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ومكن الله ليوسف عليه السلام فى الأرض وأعطاه من العلم الغيبى الذى يغيب عن الناس ولا يغيب عمن اصطفاه الله سبحانه وتعالى، فقال الله تعالى:"وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ"، تفسير الرؤى، التعرف على الحقائق من خلال المشاهدات، وهى رؤى وإشارات تقوم على الرموز.

ومن أجل توضيح ذلك للقارئ الكريم نسوق مثلا من بعض الحياة الروحية للشيخ على السماك، حيث التقى يوما بالأستاذ سعد اللبان وكان وقتها يعمل وكيل نيابة بالإسكندرية، وبمجرد أن رآه الشيخ شاهد خلفه مشاهدة يقظة مسلة فرعونية، فعرف الشيخ أن المسلة تكتب عليها الأحداث، وهى ترمز إلى الحكم، وألهمه الله التأويل ليخبر زائره هذا بأنه سيصبح وزيرا فى الحكم، واختير الأستاذ سعد اللبان فى حكومة الوفد وزيرا للشئون الاجتماعية ثم وزيرا للتعليم.

ونعود إلى يوسف عليه السلام بعد هذه الجولة السريعة التى فسرت المعانى الروحية لنقول إن يوسف عليه السلام حينما يؤمن بقلبه يتحقق مما يطلعه الله عليه، وما يطلعه الله عليه من غيب لا يراه غيبا، فقد تحول الغيب عنده إلى ظاهر، ولكنه يبقى غيبا عند أكثر الناس الذين لم يخصهم الله بعلمه وسره، فإن تحدث يوسف عليه السلام من غيب الله فإنه يتحدث بظاهر الغيب، فلم يعد الغيب غيبا بعد أن كشف الله له الحجب.

والله سبحانه وتعالى يملك الغيب كله، فحينما يظهر غيبه أو يطلع عليه أحدا، فتلك إرادته ومشيئته، وهذا هو ظاهر الغيب. أما باطن الغيب فهو السر الذى لا يعلمه أحد، وأنه مهما أوتى الإنسان من ظاهر الغيب فإنه لا يستطيع أن يرى أو يطلع على غيب لم يشأ الله أن يظهره أو يطلع عليه أحدا من الناس "عَـٰلِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ"(الجن:٢٦)، فالله سبحانه وتعالى وهب يوسف العلم القائم على تأويل الأحاديث، كما أن الله غالب على أمره، بمعنى أن يوسف عليه السلام ليس له من الأمر شىء،

بل إن الأمر لله وحده، فكل أمر ينسب إلى يوسف عليه السلام هو فى حقيقته من أمر اللـه ولكـن أكثر الناس لا يعلمون.

لقد كان يوسف عليه السلام يعرف بالعقل الراجح والـرأى السـديد والصـدق والعفـة. ذلـك هـو إيمان يوسف بربه، وذلكم هوالإيمان الذى يجب أن يحرص عليه المؤمنون بالله ليزدادوا إيمانا مـع إيمانهم. فيوسف عليه السلام آية متألقة من آيات الله تزهو وتزدهر بكل المعانى والحقائق الروحية، فهو بدر سطع فى الكون وأجمع الناس على رؤيته، وتلك قصته فى القرآن الكريـم تشـير بكـل وضوح وسهولة إلى حقائق الغيب الذى من الله به على يوسف وعلى كـل الصـالحين مـن قبـل ومن بعد.

وليزهو يوسف فى القصص القرآنى بما حباه الله وأكرمه ليضرب المثل لكل إنسان أن محبة الله النابعة من القلب هى سر التمكين الإلهى لهؤلاء الذين أحبوا الله وجاهدوا فى سبيله وقد جاء ذلك فى قول الله تعالى " الَّذِيـنَ إِن مَّكَّنَّـٰـهُمْ فِـى الأَرْضِ أَقَـامُواْ الصَّلَـوٰةَ وَءَاتَـوُاْ الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ الأُمُورِ (الحج:٤١)وقولـه تعالى "وَعَدَ اللَّـهُ الَّذِيـنَ ءَامَنُـواْ مِنكُـمْ وَعَمِلُـواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُمْ فِـى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَـنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَـرَ بَعْـدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ "(النور: ٥٥). فإذا كان الله هو الغالب على أمر يوسف، فإن يوسف لا يملك إلا أن يكون مغلوبا لله سبحانه وتعالى.

وتلك من المعانى الروحية التى غايتها التسليم الكامل لله وكف النفس عـن الأذى والميـل وراء شهواتها ودوافعها السيئة، ومن يتحقق من هذا السمو الخلقى فهذا معناه أن اللـه غـالب علـى أمره وأنه لا يملك لنفسه أمرا. وتلك هى العلاقة المستمرة بين غالب ومغلوب، خالق ومخلـوق، وهذا حال سيدنا نوح حينما دعا ربـه قـائلا "أَنِّـى مَغْلُـوبٌ فَـانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَـا أَبْـوَابَ السَّـمَاءِ بِمَـاءٍ مُنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَـا الأَرْضَ عُيُونًـا فَـالْتَقَى الْمَـاءُ عَلَـى أَمْـرٍ قَـدْ قُدِرَ"(القمر: ١٠-١٢).

وهكذا كل القلوب أمام الله سبحانه وتعالى مغلوبة ومهزومة ويبقى الله وحده هو الغالب وهو المنتصر "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"، وليعلم الناس هذه القدرة وتلك الخصائص والأسرار التي يكون عليها نبي من أنبياء الله أو ولي من أولياء الله سبحانه وتعالى.

إن يوسف عليه السلام ترجمة واضحة لكل معاناة الإنسان المظلوم الذي يضار من أقرب الناس إليه، فالنفس التي تجرح من أخ أو من صديق تتألم أكثر مما يتألم من تعرض لجرح سكين أو خنجر، فالطعنات التي تصيب النفوس أكثر إيلاما من الطعنات التي تصيب الأجساد، وتلك هي المرارة الحقيقية التي يعاني منها الإنسان. فحال يوسف كان هو حال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته، ومن خلال ذلك القصص القرآني أراد الله أن يخفف من أحزان الرسول الكريم حيث إنه كان يتعرض للأذى من أقرب الناس إليه، فيقدم له أخاه يوسف الذي كان مدللا من أبيه يعقوب عليه السلام، لما كان يتمتع به من أنوار النبوة والأسرار الروحية التي جاءت من خلال اصطفاء الله واختياره له كي يكون الوريث لأسرار ورسالة أبيه يعقوب الملقب بإسرائيل.

المدرسة الإسرائيلية

فيوسف عليه السلام هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وأقرب الأنبياء من هذه المدرسة الإسرائيلية التي أقامها يعقوب ودعا الله سبحانه وتعالى أن تستمر أبواب المدرسة مفتوحة لكل طلاب العلم، ولكي تشع هذه المدرسة برسالتها الروحية ودعوتها الهادية لتكون حصنا للناس في حياتهم لمواجهة الظلم والطغيان وكل ما يتعرض له الإنسان، وكان سيدنا يعقوب له أمل كبير في الله سبحانه وتعالى باختيار أحد أبنائه ليقوم على رسالة هذه المدرسة الروحية، فكان اختيار الله ليوسف عليه السلام، فرأى يعقوب عليه السلام يوسف يتألق بأنوار من الله سبحانه وتعالى، فيوسف عليه السلام الذي مكنه الله في الأرض شرح صدره وأنزل على قلبه الكلمات التامات والأحاديث المقدسة كما علمه من تأويل الأحاديث وبصره بالحكمة.

العلم اللدنى

فيوسف عليه السلام كان مستودعا وكنزا للأسرار والمعانى والرقة والعذوبة والحضور والجمال الروحى الأخاذ، كما أن الروحانيات التى كانت فى قلبه والنور الذى يشع من وجهه كان يفيض على قلوب ووجوه كل الذين يلقونه حتى ولو كانوا من الملوك والحكام، فالتحية التى يلقاها يوسف من غيره هى تحية من عند الله مباركة، أسست على ما حبا به الله يوسف من شفافية وحضور، فالحب الذى فى قلب يوسف لربه ينعكس على الناس والخلق أجمعين. فالله سبحانه وتعالى يقرر فى القرآن الكريم

وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىَ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ.

هذا هو العلم المفتقد الذى لم ينشغل به الكثيرون، وقد أنزل الله علمه اللدنى على كثير من عباده الصالحين ليؤمنوا بما يغيب عن عقولهم، وتلك قدرة روحية تقترب فيها الروح من سماء المعرفة لتقترب من عالم الأنوار والملائكة حيث تتلاشى الحجب وتتفتح أبواب السماء، فآدم عليه السلام حينما هبط إلى الأرض أعاد الله له نوره الذى كان عليه حتى لا يحرم من رؤية كان يراها من قبل، وإن الأرض بما فيها لن تكون حائلا بينه وبين ربه، فشهوات الأرض وأطماعها هى التى تحول بين الإنسان وقلبه، ولكن الله بعلمه ألهم آدم عليه السلام بأن هذا البحر يغرق، وأن هذه النار تحرق، وأن هذه الوحوش تفترس، وأن هذه الثعابين تلدغ.

فالله سبحانه وتعالى لم يترك آدم عليه السلام ليتعرض إلى تجارب قاسية فى هذه الطبيعة الجديدة بما تحويه، فكان الوحى، وكان الإلهام، وكانت العلوم الروحية الأصيلة التى نزلت مع آدم عليه السلام، وفى مقابل العلوم الروحية كانت العلوم التى بدأت تتواجد وتتولد من التجربة والمشاهدة والملاحظة، فبدأ الإنسان يأخذ طريقا آخر فى بحور العلوم من خلال الاحتكاك والممارسة والتجربة وتدوين الملاحظات والوصول إلى مثل هذه العلوم التى نراها فى الفضاء وفى الكمبيوتر بما يحويه من معلومات دقيقة وفى كل هذه العلوم الدقيقة التى كانت نتيجة لخبرة الإنسان وتجاربه وبحثه العلمى وتوارث الخبرة والحضارة، ولكن لا نستطيع أن نفقد

علوما روحية كانت مع آدم عليه السلام من قبل، فلماذا يفقد الإنسان ويخسر علوما أمده الله بها منذ الأزل القديم.

لذلك فالآيات القرآنية في سورة يوسف وفى غيرها من آيات القرآن الكريم توضح أن علوما روحية بذاتها وكيانها متواجدة وتعيش فى القلوب النضرة الخيرة التى استعدت بطهرها للقاء الله سبحانه وتعالى، والله يقول فى الحديث القدسى " لم تسعنى أرضى ولم تسعنى سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن"(من حديث قدسى). فالقلب المؤمن يستطيع أن يستضيف الله سبحانه وتعالى فيه، فكما ننظف أفنيتنا وبيوتنا ونرتب الدواليب وأثاث البيت، علينا أيضا أن نرتب هذه القلوب ونجملها بالإخلاص لله سبحانه وتعالى وبحب الخير والعمل الصالح حتى تكون هذه القلوب مستعدة دائما لتنزلات الأنوار والرحمات ولقاء الله وحفظه وحبه لعباده الصالحين. وفى حديث عن رب العزة يقول " إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادى جبريل فى أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض" (البخارى)، فسيدنا يوسف عليه السلام كان من هذا الصنف الذى أوجد الله فى قلبه نورا فأضاء ما حوله، فألقى عليه محبة وأصبح له قبول بين الناس.

ءاتيناه حكما وعلما

لقد أمضى يوسف بعضا من طفولته البريئة فى قصر عزيز مصر، وإذا بالرجولة المبكرة تشرق عليه فيتألق وجهه بالجمال كما تتألق الأزهار فى الربيع، وقد جمع بين جمال الخلقة وجمال الروح فأصبح أكثر جمالا، لأن الله سبحانه وتعالى ينظر إليه ويكلؤه بحبه ورعايته، فجمال يوسف عليه السلام هو بعض قليل من جمال الله سبحانه وتعالى، وفى قلبه نور ضئيل من نور الله، فيوسف فى رجولته هذه نور على نور، وجمال على جمال، وذلك حال من طبيعة النور والحب الإلهى. فكلما خشع قلبه لله أفاض الله عليه بالحب والنور والعلم والبركات. ومن خلال ذلك الحال اللطيف تجلى الله عليه بقوله فى القرآن الكريم:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد آتاه الله من ملكه فى السموات والأرض، فجمع يوسف عليه السلام ما بين الحكم والعلم، فالحكم دعوة لا ترد، فإذا ما أقسم على الله أبره، والحكم هيبة لا تقارن بها هيبة الملوك والحكام، فالمقارنة بين من آتاه الله الحكم وبين حاكم ولاه الناس توضح بيسر وسهولة مقام يوسف عليه السلام فى الأرض وفى السماء، وقد بين الله سبحانه وتعالى أن الحكم لا يقوم إلا على العلم، والحكم الذى فى قلب يوسف يحول الأمانى إلى حقائق، فما يخطر فى نفسه أو يكمن فى قلبه واقع بين سمع الله وبصره، فآتاه الله العلم الذى ينير بصيرته ويلهمه الصواب والحكمة ويكشف له عن الحقيقة حتى لا يعبد الله بالظن والخيال، وذلكم هو التميز والاصطفاء الذى آتاه الله لعبد محبب إليه سبحانه وتعالى، ولقد تمتع يوسف بمحبة الله حتى أصبح الله غالبا على أمره، ولم يعد ليوسف أمر بل لله الأمر جميعًا، والعلم الذى منحه الله ليوسف هو نور أراده الله ليرى يوسف ما يتحقق به فى عبادته لله، وتعامله فى الحياة، وقد استودع الله فى قلبه مجلسا للشورى ودارا للإفتاء وحكمة فى الاقتصاد وشئون حكم البلاد، وتلك مدرسة روحية لا تضاهيها مدرسة أخرى.

وما على يوسف عليه السلام إلا أن يستمر فى تحققه من الله سبحانه وتعالى ليلا ونهارا، طمعا وخوفا، حبا ورجاء، وتلك سنوات دراسية لا تنتهى، فهى علاقة مستمرة يتلاقى فيها العارف بالمعروف، والمعروف هو الله سبحانه وتعالى، وقد ارتدى يوسف عليه السلام حلة المعرفة وقد تلألأت بأسرار الله وعلمه وأنواره.

وهذا ما يدعو الملائكة لتتابع النور والعلم فى قلب ووجه هذا الصبى الذى وقعت عين الله عليه. فليس هناك من ظل يظله أعظم من ظل الله، وليست هناك رحمة أكبر من رحمة الله، وليست هناك قوة يحتمى بها أشد من قوة الله، وليس هناك حصن يتحصن به أقوى من حصن الله، وذلكم هو يوسف فى صباه أسير القلوب ذو الوجه المحبوب والقلب الذى امتلأ بالنور المسكوب.

فلتبارك الأرض خطواته، وتسعد الأرض والسماء بلقائه، فأى موكب هذا يسير فيه يوسف، وقد جمع بين حكم الله وعلمه، وغيره من الملوك والحكام لن يتبوءوا مثل هذه المكانة العظيمة، فإن صار إليهم الحكم توقف على إرادة الناس، وإن نما إليهم العلم إنما يأتيهم ممن حولهم وأخطر ما يكون أن يقام حكم على جهل وعدم دراية، فالفارق بين حكم وعلم يوسف عليه

السلام وبين غيره من حكام الأرض جميعا هو ماخص الله به يوسف من علمه وحكمته، وتلك هبة تمتع بها خلال موكب حياته الدائم، بينما يتمتع الملوك والحكام بمواكب تبدأ وتنتهى، أما موكب يوسف فلا ينفض أبدا، ولذلك يختتم الله تلك الآية الكريمة بقوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ

شهوات الأرض لن تنال من يوسف

تشير آيات القرآن الكريم إلى يوسف عليه السلام كظاهرة إيمانية جعلها الله نبراسا يهتدى به، ولقد أعد الله يوسف ليكون رسولا، فكيف يكون الإعداد والتربية والتهيئة التى وهبها الله ليوسف عليه السلام؟ لقد أعده الله ومكنه فى الأرض، فلم يعد لهذه الأرض سلطان على يوسف عليه السلام، وسلطان الأرض يتمثل فى الشهوات والأطماع وحب الذات والامتلاك والجاه والسلطان، فمكن الله يوسف فى هذه الأرض، فلم تعد الأرض لها قدرة التأثير على يوسف حتى كادت أن تتضاءل وتختفى وتستبدل فى حياة يوسف بالسماء وإشراقاتها وأنوارها وسموها، فلم تعد الأرض أرضا كتلك التى يتصارع الناس من أجلها.

فيوسف عليه السلام يمشى على الأرض هونا فقد جذبته السماء بروحانياتها ونور ربها، وذلكم هو الفارق بين قلب أحب الله وقلب انشغل بنعمة الله فنسى حب الله وعشق حب الحياة وشهواتها وملذاتها، ومع ذلك فلا يأس لهذه القلوب، فالقلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. وأحوال يوسف بهذا الوصف هى أول درس فى مدرسة الله سبحانه وتعالى، فهو الزاهد فى متاع الدنيا، والراضى بما قسمه الله له، والمطمئن بقربه من الله، وتلك من صفات طالب العلم الإلهى، فلما قبله الله طالبا عنده علمه من تأويل الأحاديث وسكب فى قلبه النور والحكمة، فاستسلم يوسف لغزو الله له، فأصبح الله غالبا على أمره، وذلك يعنى أن يوسف فى مقام التوكل، والله يحب المتوكلين.

وانشرح صدر يوسف بقربه من الله ولحب الله له، فسعد بذلك سعادة لا يشقى بعدها حتى ولو اجتمع أهل الأرض جميعا على إيذائه والنيل منه فلن يكون تعيسا متألما أو متوجعا، وذلكم هو الصفاء الكامل والنقاء الواضح والروح الهائمة فى مشاهدة تجليات الله وأنواره وعطفه

وحبه ورضاه، ويكشف الحديث القدسى عن مثل تلك الأحوال الروحية، حيث جاء عن رب العزة فى حديثه القدسى على قلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم " أنا جليس من ذكرنى، فإذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسي، وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن اقترب إلىَ شبرا تقربت إليه ذراعا، وإذا اقترب إلىَ ذراعا تقربت إليه باعا، وإذا أتانى يمشى أتيته هرولة"(مسلم).

وأيقظت هذه الحقيقة عين يوسف التى لا تنام عن مراقبة الله ورؤية نوره الذى لازمه فأصبح أنيسا له فى حياته، فان جلس وحده فإن الله معه، وتلك سعادة كان يتلذذ بها يوسف، بينما من الناس من لا يدرك أبعاد تلك السعادة إلا من صلح قلبه وعرف ربه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وفى مدرسة الله اجتاز يوسف عليه السلام مراحل العلم مرحلة مرحلة، حتى إذا بلغ أشده آتاه الله حكما وعلما، وتلك شهادة وإجازة ترنمت بها كلمات القرآن الكريم فى قول الله تعالى "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ".

وكان ذلك جزاء إحسان الله ليوسف، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان. فيوسف وحده لم يحسن إلى نفسه ولم يكن له فضل يتغنى به ولا ذكاء يزهو به، ولكن الفضل فضل الله والنعمة نعمة الله سبحانه وتعالى، وهكذا يحسن الله إليه ثم يكتبه عنده من المحسنين، فكلما نضج يوسف ترعرع وسما.

وتلك حقيقة تؤكد أنه كلما طالت أعمار الصالحين كلما حسنت أعمالهم وازدادت حسناتهم، وخيركم من طال عمره وحسن عمله، وتلك زيادة لا تنتقص، وأمل لا يفتقد، وأجر لاينقطع، ونور لا ينطفئ، ورضوان لا يتغير، وتوفيق لا يتبدل، وذلكم هو يوسف فى علمه وقد تخرج فى مدرسة ربه ليجد وظيفته عند الله سبحانه وتعالى، وقد أعدها له رسالة وللناس هداية، فلينطلق يوسف فى دعوته.

ولسوف تأتى الأيام بما تدخره باختبارات كثيرة تتماثل واختبارات الأرض التى تتعرض للزلازل والبراكين والعواصف والفيضانات والسيول، ولسوف نرى أثر ذلك واضحا على يوسف فى رحلة حياته منذ طفولته وصباه وحتى شيخوخته.

لقد كان الجمال الذى يتألق به يوسف عليه السلام بمثابة دعوة للحب، فالوجه المحبب يدعو الناس إلى التأمل فيه وإطالة النظر نحوه، فهو الوجه المريح لكل الناظرين والمتطلعين، ولقد لاحظت

امرأة العزيز أن القمر الذى يسطع فى السماء يتهادى نحو الأرض ويسكن فى بيتها، إنه يوسف ذلك السراج المنير والطلعة البهية، فهو قمر زمانه، يقترب ويبتعد، يخبو ويظهر فيُرى هلالا، ويُرى سراجا، وفى كل أحواله تترقبه العيون، وتبحث عنه القلوب المحبة، ويتألق القمر بحب الناس جميعا منذ أن خلقه الله سبحانه وتعالى. ولم نسمع حتى يومنا هذا أن إنسانا ما قد سب القمر، بينما قد لا تسلم الشمس، وهى الأقوى والأكبر، من سباب الناس لها والاختفاء من حرها. فيوسف هو القمر الذى جذب نظر وعقل وقلب امرأة العزيز إليه.

مراودة امرأة العزيز

ويقول الله تعالى:

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّـٰلِمُونَ

من خلال هذا المشهد القرآنى الذى يمثل امرأة العزيز فى طموحها وخيالها البعيد وما تكنه فى نفسها من مستقبل بعيد أو قريب، بدا لها أن تعمل على مراودة يوسف عليه السلام لا سيما وهى تستشعر فى قرارة نفسه أنه ابن لها، فلقد تعهدته منذ صباه وعنيت بتربيته وتنشئته ورعايته حتى شب يوسف فرأى فى امرأة العزيز الأم التى يأوى إليها بعد أن فرقته الأيام ولم يعد بحظى بحنان أمه وأبيه، فيوسف عليه السلام يريدها أما، وهى تريده زوجا، خاصة وأنها ترى أن زوجها العزيز قد أصبح شيخا كبيرا وتخشى بوفاته أن يذهب الحكم بعيدا عنها.

وقادها طموحها لتكتشف أن البديل هو يوسف عليه السلام لما يحظى به من رجاحة عقل وبعد نظر وقوة إرادة وصبر على المكاره، كما أن وفاة عزيز مصر قد تؤدى إلى انهيار الأسرة الحاكمة وما يستتبع ذلك من اضطرابات وقلاقل ومنازعات يمكن أن تؤثر على أمن وسلامة البلاد، أو قد تتعرض هذه البلاد للغزو وأطماع الطامعين أو استعمار المستعمرين، فألح عليها تفكيرها فى ضرورة تواجد البديل الذى يحل محل زوجها وينجح على الجانب الآخر فى إدارة البلاد ورعاية الحكم لعلها تجد حلا لهذه المشكلة المرتقبة.

فلم يكن في نظرها أصلح من يوسف عليه السلام، فبدأت تفكر في يوسف لعله بحكمته وذكائه وسعة أفقه وطيب شمائله أن يكون حاكما يحل محل زوجها عزيز مصر بعد وفاته، وبذلك تحافظ على العرش والملك ويظل كرسي الحكم قريبا من منالها. فمن خلال طموحها هذا وبعد نظرها رأت امرأة العزيز أن تحول مشاعر يوسف من مجرد ابن بار بها إلى زوج يحقق طموحها، وإن امرأة العزيز لا يستهويها الجنس بقدر مايستهويها حب البقاء والمحافظة على الجاه والسلطان.

وتلك نظرة غابت عن الكثيرين الذين ركزوا تفكيرهم على قضية الجنس، بينما القضية الأساسية هي قضية السياسة، وهذه مجرد نظرة أخرى ربما كانت تعيش في أعماق هذه الزوجة، وذلك احتمال قائم يفجر قضية لا ينبغي إهمالها، وهي قضية المرأة ودورها في الحكم والسياسة، وبتلك النظرة نخرج عن المألوف والمتعارف عليه في قضية امرأة العزيز، وفي أسلوب مراودتها.

فالمراودة عند امرأة العزيز تستهدف غايتين، الأولى هي تحويل وتغيير يوسف من حالة شعوره بالبنوة تجاهها وضرورة تغيير مشاعر الأمومة وتحويله إلى زوج والغاية الثانية هي تأهيله لتحمل المسئوليات المنتظرة، وتشجعت امرأة العزيز يدفعها عزمها وتصميمها لتحقيق أهدافها البعيدة وفتحت أبواب قلبها ليوسف كما أغلقت عليه أبواب حجرتها حتى تجعله في حصار شديد فلا يجد له مخرجا، وقد أرادت أن تضعه في دائرة لا يخرج منها، وهي دائرة تفكيرها وعزمها، ولكن إذا أغلقت كل الأبواب فقد بقي باب واحد وهو باب الله سبحانه وتعالى الذي ينفتح حينما تغلق الأبواب في وجوه الحيارى والمظلومين، فبدت له بجمال صارخ وبدا له الله بجمال أعظم.

فبدلا من أن يبادلها يوسف كلمات الحب والإطراء وجد لسانه وقلبه ينطقان بحب الله ويستعيذان به سبحانه وتعالى حتى لا يجمع بين حبين في قلب واحد ولا يشرك بربه أحدا.

وظل يوسف معرضا عنها، بينما هي تقابل إعراضه بالتودد إليه، فقد رأت بحسها أن الموقعة لم تنته بعد، وأن المحاولة قد تجدى، فهي امراة لا يتسرب إليها اليأس، فداومت على الاهتمام به وأحسنت معاملته برقة، تحدوها المشاعر الفياضة بالحب والإعزاز، وظلت هكذا تلاحقه بمعسول كلماتها وفتنة جمالها.

وقابل يوسف كلماتها وقلبه الصغير لا يعرف الحقد ولا يرفض الحب، وتلك طبيعة إنسانية أن يحب الإنسان من يحبه ويكره من يكرهه، وإن فطرة يوسف تدعوه إلى السلام حتى لمن أساءوا إليه، وتلك طبيعة خيرة لا تعرف التصنع أو الزيف أو المسايسة، ولا تؤمن بأنصاف الحلول، وحينما ظنت امرأة العزيز أنها قد تسللت إلى قلب يوسف اقتربت منه أكثر وأكثر ولاطفته بكلماتها المؤثرة وطبيعتها الساحرة من أجل استمالته وترويده حتى يهتم برغباتها ويحقق لها ما تصبو إليه.

وفى غفلة من الزمن أخذ قلبه يتعاطف معها، وألحت عليه الطبيعة الإنسانية المصاحبة لخلقة الإنسان فى الحياة، وكادت الغرائز والداوفع أن تتحرك، فقد همت به، فلماذا لا يهم هو بها، فبدا له أن يهم بها، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، وفى الحال أدركه الله وسكب فى قلبه حبا لا ينتهى، فلم يستشعر يوسف حب امرأة العزيز ولا همساتها ولا كلماتها ولا عواطفها الجارفة نحوه، ويصف القرآن هذا الموقف بقول الله تعالى:

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ

وهكذا أمده الله بحبه حتى تيقن من حب الله له وغيرته عليه، فسبح فى ملكوت الله، وفى ذلك دليل وبرهان على إحسان الله ولطفه ورحمته، تأكيدا لمعنى "الر" فى حياة يوسف عليه السلام. وتمر الحادثة على هذا النحو ويبقى الدرس قائما يشير إلى الخطايا التى تحاصر الإنسان وترغمه على الانحراف، وهذا ما حدا بالمسيح عليه السلام ليقول عن امرأة كانت قد أخطأت "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر."

ولقد وضح مما حدث لسيدنا يوسف أن النفس الإنسانية وعاء يستوعب كل الصفات، فهى وعاء تجتمع فيه الصفات المختلفة والمتباينة، وأن الفرص متاحة لتفوق أى صفة من تلك الصفات على النفس الإنسانية تبعا لمدى الثقافة ووضوح الرؤية والحرص على القيم والمبادئ، وعلى قمة ذلك مخافة الله، وذلك كله يدعو النفس لاتخاذ موقف أخلاقى يباعد بين الإنسان وبين الخطيئة، ففى النفس الإنسانية صفات الشجاعة والجبن، والقوة والضعف، والإقدام

والتخاذل، والاطمئنان والقلق، والكرم والبخل، والثورة والكمون، والكبر والتواضع، والشر والخير، فلا تتمكن النفس الإنسانية من أن تستمر على حال واحدة، فهى ذات أحوال متقلبة، وأن البقاء على حال واحدة يشبه البقاء على القمة، ومن الصعب أن يستمر الإنسان تحت وطأة صفة من صفات هذه النفس، ولا ينقذ هذه النفس من انحدارها سوى الرغبة الدائمة فى محاسبتها ومراجعتها.

وعلى الجانب الآخر مهما اتصفت النفس بالشر أو بالحقد أو بالحسد أو بغير ذلك من صفات سيئة فإنها أيضا تحمل الكثير من المعانى والصفات الفاضلة، وهذا ما يدعو إلى عدم اليأس فى حالة الانحراف أو الفساد، فان ما ظهر من صفة من الصفات السيئة إنما وراءه أحداث ودوافع ومناسبات، فحينما تتلاشى الدوافع التى تؤدى إلى الفساد والانحراف فإن النفس لا تجد فرصتها لتنحرف أو لتفسد، وتلك هى عيون الأنبياء والحكماء فى معاينة النفس الإنسانية حين الإساءة أو اقتراف الآثام، فعيون الصالحين تتجاوز سيئات النفس ويقع بصرها على ما فى النفس من الصفات الأخرى الصالحة، فيدفعها ذلك إلى الرحمة بكل الذين أساءوا، وذلك لا يختلف عن المنهج الإلهى كما جاء فى قول الله تعالى " قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"(الزمر: ٥٣) كما يقول تعالى "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ" (النساء: ٤٨) كما جاء فى الحديث القدسى عن رب العزة " إن رحمتى تغلب غضبى"(مسلم).

فنقطة الضعف التى ألمت بيوسف عليه السلام ما إن أخذت وضعها لتظهر حتى تلاشت باندفاع كل صفات وعناصر الطهارة الكامنة فى نفسه لتشن هجوما سريعا مفاجئا على نقطة الضعف الإنسانى، وتلك بعينها جنود الله فى الإنسان، وذلك برهان من الله اختص به أنبياءه ورسله وأولياءه الصالحين، فيقول الله تعالى فى القرآن الكريم "أَلآَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ* لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِى الْحَيَوٰةِ

الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَـتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُـوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"(يونس: ٦٢-٦٤).

وقد كان يوسف من المخلصين الذين تخلصوا من السيئات والآثام بفعل تربيته الإلهية وعناية الله به، حقا إن عناية الله فوق كل عناية. وكما جاء فى قوله تعالى "إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ".وحينما تهافتت نورانيات النفس في حالة ضعفها وجد يوسف عليه السلام نفسه مندفعا نحو باب من أبواب الفضيلة طلبا للنجاة والابتعاد عن مواطن الخطر، فأحست الرذيلة التي تكمن في نفس المرأة أنها قد انهزمت، فاندفعت هى الأخرى لعل الرذيلة تغرى الفضيلة وتحطم مقوماتها، وقد شهد قصر العزيز سباقا محموما بين الفضيلة والرذيلة.

وفى اللحظة الحاسمة التى كانت فيها الفضيلة فى الأمام والرذيلة فى الخلف فاذا بالرذيلة تقوم بتمزيق ثوب الفضيلة، وتصادف قدوم عزيز مصر ليرى بعينيه ويشهد بنفسه الوقائع والأحداث،ويعبر القرآن عن ذلك الموقف بقول الله تعالى

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ

فنظر العزيز إلى يوسف فوجده صامتا لا يتكلم ولا يشكو، بينما راحت امرأة العزيز تحدث زوجها عما أصابها وقد ارتدت ثيابا خادعة لتبدو فى موقف العفة والبراءة، فهى زوجة ذكية تستطيع أن تؤثر على من حولها وعلى الأخص زوجها، وقالت امرأة العزيز كما جاء فى قول الله تعالى

قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

وهنا أراد يوسف أن يدافع عن نفسه بوداعة وبراءة بخلاف ما دافعت هى عن نفسها بمكر ودهاء، فقال كما جاء فى قول الله تعالى"

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَـذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّـدِقِينَ

وهكذا برز عنصر الشهادة المتميزة بالذكاء من الشاهد المنتمى إليها بصلة القربى حيث يقول الله تعالى"وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا"، فجمع بين المنطق والواقع الذى كان عليه يوسف حيث تمزق قميصه، وكان الرأى واضحا ليس فيه التواء أو غموض من قبل هذا الشاهد، حيث أوضح إن كان ثوب يوسف قد تمزق من أمامه فإنه يكون هو المعتدى وهى فى موقف الدفاع عن نفسها، وبهذا تصدق امرأة العزيز ويكون يوسف من الكاذبين، أما إن كان ثوب يوسف قد تمزق من خلفه فهذا دليل على أنه كان يتهرب منها ويبتعد عنها وهى التى كانت تلاحقه وتطارده، فإن كان الأمر كذلك فقد صدق يوسف وكذبت امرأة العزيز.

ونظر الزوج فرأى قميص يوسف قد تمزق من خلفه فعلم أنه برىء، وهذى بكلمات تكاد أن تكون بصوت خفيض أمام امرأته قائلا: إن ما حدث إنما هو من مكائد النساء ومكرهن العظيم.حيث يقول الله تعالى:

فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ

ولقد وضحت حقيقة هامة أن المرأة وإن كانت ضعيفة البنية وفاقدة القوة، إلا أنها تستعوض ذلك من خلال ذكائها وفطنتها وقدرتها، وقد ينقلب الضعف الإنسانى إلى ذكاء خارق يعوض ما يعترى الإنسان من ضعف البنية أو قصر القامة، وقد يضعف الإنسان سواء أكان ذكرا أم أنثى أمام المواقف والشدائد والمحن والاختبارات، فيبحث دائما عن المخرج ليعبر إلى السلامة والأمان.

ولكن على الإنسان أن يختار مخرج الصدق للخروج من الأزمة والشدة، وليس الاحتيال والكذب والفساد، وإلا سيخرج الإنسان من أزمة ليقع فى أزمة أخرى، ففى الصدق النجاة وفى الكذب الهلاك، فهل ستستمر امرأة العزيز على كذبها وادعائها تجاه يوسف عليه السلام؟ أم أن مكانتها الاجتماعية وقوة شخصيتها ستدعوانها إلى الصدق والاعتراف بالحق، هذا ما سوف تكشفه الأيام.

إن ادعاءات امرأة العزيز لم تحظ قبولا أو تصديقا من زوجها عزيز مصر، وأصبح العزيز فى موقف لا يحسد عليه، فإن وافق على ادعاءات زوجته، فهذا أمر لا يرضيه قطعا، وإن عنف

زوجته، فربما تهجره وتحول حياته إلى نكد مستمر. فلا بد له أن يفكر فى حل يتناسب وقدراته السياسية ومسئولياته فى حكمه، فماذا سيفعل؟

لقد أنهى العزيز هذا الموقف بلباقة بالغة لكلا الطرفين ، يوسف وامرأته، دون إحداث ضجة أو فضيحة، فطلب من يوسف أن يغض النظر عما حدث ويتناسى هذا الأمر ويعتبر هذا الحدث أمرا عارضا، وكأن شيئا لم يكن، وعبر القرآن عن هذا الموقف بقول الله تعالى "يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا"، ثم توجه إلى زوجتة ويبدو أن لهذه الزوجة كما أشرنا كيانا مرموقا وقوة آمرة وسلطانا مبينا، وقد اعتاد الزوج أن ينظر إلى زوجته هذه بنظرة ملؤها الرهبة وتجنب المضايقة أو حتى إبداء اللوم، ولم يجد الزوج من حل يرضيه إلا أن يطلب من زوجته أن تستغفر لذنبها مع ضرورة اقتناعها بحماقة خطئها.

ويبدو أن العزيز كان مؤمنا ومتأثرا بيوسف فيما يعتريه من إيمان بوجود الله، ولذا طلب من زوجته أن تستغفر لذنبها، وعليها أن تستر هذه الفضيحة وهذا الموقف، فلا تظهره ولا تتحدث فيه وينتهى أيضا عند هذا الحد، وبهذا أراد العزيز أن يخمد نار الفتنة وينهى ما قد يحدث من فضيحة ويجعل الأمر يتجه إلى الهدوء وعدم الإزعاج والضوضاء والثرثرة، حتى لا تفوح رائحة هذا الحدث ويعرف الناس ما حدث فى هذا القصر، فاكتفى بتوجيه عتاب أو لوم رقيق إلى امرأته كما جاء فى قول الله تعالى"

وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ

ويبدو أن أصحاب القصور المشيدة يعتقدون أن أبواب قصورهم محكمة وبالتالى فإن أسرار القصور لا تتسرب ولا تصل إلى أسماع الناس، فالأسرار لا تحجبها الأبواب الحديدية أو حتى البوابات المحصنة، واطمأن الزوج إلى حسن تصرفه هذا وتأكد أن الستار قد أسدل على تلك الحادثة العارضة فى قصره الجميل وأن كل شىء قد انتهى، وأنه استطاع بهدوئه ونظرته البعيدة معالجة هذا الأمر حتى لا تلوكه الألسنة ويتخذ سلاحا قويا ضد العزيز وحكمه، ويبدو أن هذه المجتمعات فى مثل ذلك العصر كانت تهتم بالأخلاق رغم أن الشرائع السماوية كانت فى حدودها الضيقة، وأن الصفات الأخلاقية كانت ترجع إلى عراقة الشعوب وأصالتها وإيمانها بالفطرة التى فطر الله الناس عليها.

والعاملون فى القصور مهما توفرت فيهم ثقة الملوك والحكام فإنهم كثيرا ما يفشون أسرار هذه القصور بخلاف ما يظنه سكان القصور، فقد يتكتم الأمر فى داخل القصر ولكنه سيتطاير الى خارجه لا سيما إذا كانت الأمور لا تتفق مع العادات والتقاليد الموروثة، ورغم حذر العزيز واهتمامه بإخفاء ما حدث إلا أن الحذر لا يمنع القدر، وتسرب الأمر إلى أسماع أهل المدينة حيث يقول الله تعالى فى القرآن الكريم"

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

وترامت الأخبار إلى أسماع النساء فلم يعد شيء يختفى فى المدينة، وأن ما يجرى فى البيوت العريقة يتسرب من خلال الخدم والحراس رغم أن العزيز قد تصرف بمنطق الحكمة والموعظة الحسنة حفاظا على مقامه وكبريائه بين الناس، وامتلأت المدينة بثرثرة نسائها وأخذن يتحدثن فى هذا الأمر فازداد انتشارا ووصل إلى مسامع امرأة العزيز نفسها.

وهذا يعنى أن الفواصل بين القصر وبين الشعب لا يمكن أن تتواجد بالشكل الذى يرغبه أصحاب القصور هؤلاء، فما يحدث فى داخل القصر ينتقل سريعا إلى خارجه، بينما ما يحدث خارج القصر إن انتقل الى القصر فإنه ينتقل بطيئا. فالقصور تحول بين أصحابها وبين الذين يخافون من سطوتها وقهرها وظلمها، فقد اعتاد الناس فى كل زمان عدم ارتياد القصور حتى ولو كانت لهم مظلمة خشية بطش أصحاب الجاه والسلطان مثل الملوك والحكام.

وشاع فى المدينة أن امراة العزيز أحبت فتاها يوسف الذى يعتبر بمثابة ابن لها، وأن حبها له فاق كل حب، وأثار ذلك حفيظتها ففكرت فى استدعاء نساء المدينة، ورغم ما حدث فقد رأت أن خير من يدافع عنها هو يوسف عليه السلام حتى تضع حدا لكل ما دار فى المدينة من همز ولمز وأحاديث تضر بسمعتها وتقضى على آمالها.

وبالفعل استدعت النساء ورتبت لهن لقاء حافلا يكثر فيه ما لذ وطاب من أشهى الأطعمة وأجود الفاكهة، وأثناء تناول النسوة للفاكهة أدخلت عليهن يوسف عليه السلام وقالت لهن هذا هو يوسف الذى لمتننى فيه، فنظر النساء إليه بإمعان شديد وألفت كل واحدة منهن أنها قد

جرحت يدها، وسالت الدماء من أياديهن، فأحست امرأة العزيز أن جراح القلب أشد ألما من جراح اليد، وفى نفس الوقت هتف النساء من أعماقهن إن يوسف عليه السلام فاق البشر فى جماله وجاذبيته، فحسبنه ملكا يقطن فى السماء ويتربع فى قلوب الرجال والنساء، ويفسر القرآن هذه الواقعة بقول الله تعالى:

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ

نعم لقد قطع النساء أيديهن، فهل كان هذا سبيلا إلى إقناعهن بموقفها أو أن ما حدث كان عقابا لهن على ما كان يجرى على ألسنتهن، وبغض النظر عن تلك الأحداث فإنه من الواجب عدم التسرع فى إلقاء التهم على الآخرين دون تأكد، والخوض فى الأحاديث التى تنهش عظام الناس وتقطع أجسادهم، فقد تكون الكلمات التى تشيع الفاحشة أكثر ضررا من الفاحشة نفسها.

وقد جاء فى معنى ذلك قول الله تعالى "قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ"(الأعراف: ٢٨)، وقوله تعالى "قُل إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ" (الأعراف: ٣٣)، كما جاء فى الحديث الشريف "إن الله يبغض الفاحش المتفحش"(الإمام أحمد)، وأن الستر أوجب من الفضيحة، وتلك رؤية الحكماء وأصحاب البصائر فى الحياة. فمعرفة الأسرار تستدعى أحيانا غض البصر كما جاء فى قول الله تعالى " قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ* وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ"(النور: ٣٠-٣١).

وهذا درس من الدروس بينته الشريعة الاسلامية، حيث جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى مثل هذه المواقف "من ستر أخاه المسلم فى الدنيا فلم يفضحه ستره الله يوم القيامة" (الإمام

أحمد)، كما لا يجوز الظن السيىء في الناس حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"(البخارى ومسلم). وقد أكد القرآن هذه الدروس الأخلاقية بقوله تعالى "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ" (الحجرات: ١٢).

وهذه هى الدروس والمواعظ التى تخرج من أفواه الرسل والأنبياء دفاعا عن حرمة الإنسان.

ونعود إلى امرأة العزيز فى اجتماعها بنساء المدينة بعد رؤيتهن ليوسف عليه السلام، وتقطيع أيديهن، حيث قالت كما كنا نعهد فيها إنها لن تستمرئ الكذب طويلا وإنها لا تبغى الفاحشة حقيقة، فما كانت تستهدفه حسب رؤيتنا هو استمراريتها للمشاركة فى الحكم من بعد رحيل زوجها مستقبلا، فوقفت تخطب فى النساء واعترفت قائلة: نعم لقد راودته عن نفسه فاستعصم.

وهذا نوع نادر من الصدق الممتزج بالجرأة يظهر مدى ما تتمتع به امرأة العزيز من شخصية ذكية وماكرة فى نفس الوقت، وتلك أخلاقيات الكثير من أهل الحكم وأصحاب النفوذ، وهددت يوسف إن لم يستجب لما تأمر به فإنه لا بد وأن يسجن عقابا له، ومن ناحية أخرى ليختفى من أمام وجهها، وكان ذلك تحديا سافرا ولا يخرج إطلاقا من امرأة رقيقة تخشى الناس، وكان هذا هو ختام لقائها الحافل بنساء المدينة، وإنه لم يعد يهمها ما يقال، وقد ورد هذا الموقف فى قوله تعالى

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ

لقد استطاعت امرأة العزيز أن تقنع النسوة وغير النسوة بموقفها هذا الذى دعاها إلى عدم السيطرة على نفسها وعلى قلبها، فهذا هو الذى حدث فيه اللوم والعتاب على ألسنة الناس جميعا، وهنا يتضح أيضا أن هناك سيئات لا تغتفر فى عيون الناس بينما يغفرها الله سبحانه وتعالى، فإن الله يغفر الذنوب جميعا إلا أن يشرك به، وهذ هو الفارق بين محاسبة الله ومحاسبة الناس بعضهم بعضا.

لقد كان رد فعل امرأة العزيز عنيفا لما سمعته من أحاديث النساء بالمدينة، ففى ختام لقائها بهن تعاظمت بقولها: هذا هو الذى تطاولتن به على، وتوعدت بأن تدخل يوسف السجن متحدية

كل الأعراف والمبادئ، وذلك فى حال عدم استجابته لطاعتها وتنفيذه لإرادتها ورغبتها، حيث إن على يوسف ألا يحقر من شأنها وعليه أن يعرف أن رغبات الحكام أوامر.

وهكذا تأكد ما كان فى نفس امرأة العزيز من تطلع يدعوها إلى ضرورة مراودة يوسف عليه السلام لتحويل مشاعره تجاهها، فعليه ألا ينظر إليها كما لو كانت أما له، بل يجب أن ينظر إليها كزوجة حتى تستطيع تحقيق مآربها وتطلعاتها فى الحياة وفى الحكم، فإن كانت قد كونت لنفسها عقيدة، فالعقائد لا تقام على الأهواء والشهوات والتطلعات الفاسدة، وعلى يوسف أن يصحح تلك العقائد بمبادئه ومثاليته وما يحمله من رسالة روحية إلى قومه.

لقد وضح من هذا البحث أن القرآن الكريم لم يعلن اسم امرأة العزيز، فلقد سترها الله فى قرآنه، بينما تشدق باسمها كل الذين خاضوا فى ذكرها، ولها أن تتساءل يوم القيامة لتقول لهؤلاء: لقد سترنى الله سبحانه وتعالى وفضحنى الناس، بل من أكثرهم علما وتدينا، كما تبين أيضا أن امرأة العزيز ليست امرأة ساقطة، بل كانت تبحث عن المجد والحكم بأى ثمن.

وتلك ترجمة حقيقية للممارسات السياسية فى العالم بأكمله، ولقد كانت امرأة العزيز صريحة حينما قالت " أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ"، وكانت عنيفة حينما توعدت يوسف بالسجن أمام جمع النسوة، وكانت ضعيفة حائرة أمام طهر يوسف وعفته ووداعته، وتلك هى أحوال النفس المتقلبة التى لا تبقى على حال واحدة.

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَـٰهِلِينَ* فاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

وفى لحظة عاشها يوسف من صميم قلبه الصادق المفعم بالجمال الإلهى، انتفض مما يراه من سحابة سوداء قاتمة فى شهوة حملها الشيطان إليه لتحول بينه وبين أنوار الله سبحانه وتعالى، كما تفعل سحب الشتاء التى تحجب الشمس، فيوسف عليه السلام كإنسان قد يخضعه تهديد امرأة العزيز، فإن وقع فى حبها فإنه يبتعد عن حب الله، وهنا تحدث المقارنة الذكية، فبينه وبين الله نور وصلة وقرب، ولا يريد أن يحتجب عن تجليات الله، بل يريد أن يكون فى يقظة دائمة

تسبح فيها روحه فى عالم الغيب والشهادة ويخشى من ظلمات الحياة التى قد تصيبه بغفلة تحول بينه وبين ألطاف الله وإشراقات أنواره المقدسة، فمشاكل الحياة قد تنفذ إلى القلوب وتعكر صفاءها، بينما حضور القلب مع الله يمحو كل شدة وكل ألم، والله سبحانه وتعالى يخاطب الناس من قلوبهم، ويمسح عنهم السوء والشدة والألم، فهذه قيمة لا يفرط فيها يوسف، فليس أمامه من حل إلا الابتعاد والخروج من دائرة القصر الذى تتحكم فيه امرأة العزيز وما قد يتعرض له من مغريات الحياة وشهواتها الآثمة التى تباعد بينه وبين حياته الروحية ونفسه المطمئنة الراضية بقضاء الله وقدره، فهروبه من القصر ليس بالأمر السهل، فقد دخل القصر بعناية الله وعليه أن يصطبر حتى يخرج بتدبير من الله، فالله غالب على أمره وليس له من الأمر شيء.

فدعا يوسف ربه أن ينقذه من غواية امرأة العزيز حتى ولو دخل السجن، فإن السجن فى هذه الحال أحب إليه من حياة يخشى فيها على نفسه وعلى قلبه، وهذا كان توجهه إلى الله كما جاء فى قوله تعالى "قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ". وتلك هى خيارات الحياة ومواقفها الصعبة، فكم من أصحاب المبادئ جرفهم تيار الشهوات والملذات فتنازلوا عن مبادئهم، بل وتنكروا لها وناصبوا العداء كل من يدعو إلى تلك المبادئ والمثل والقيم، وإن فى التاريخ لعبرة.

فيوسف عليه السلام لا يتنازل عن مبادئه وأخلاقياته مهما كان الثمن، فهو يؤمن بالقدر، فإذا كان قدره أن يعيش فى القصر فلماذا لا يعيش فى السجن إذا كان ذلك قدره أيضا، فإيمانه كل لا يتجزأ، فلا يؤمن ببعض ويكفر ببعض، فالسجن عنده عقوبة لأهل الظلم والعدوان، وإشراقة روحية لكل مظلوم من أهل الصلاح والإيمان، وهؤلاء إن سجنوا بأجسادهم فإن أرواحهم لا تحد بجدران السجون، بل تسمو فى آفاق محبة الله وعطفه ورحمته، فهذه النوعية من السجناء لها طابع مميز فيما يختص بصقل الروح وتوهج القلب بأنوار الله المقدسة، فإنَّ للمظلوم دعوة تخترق السموات.

ودعا يوسف ربه أن يبدله السجن بدلا من القصر حتى يبتعد عن همزات الشيطان، وكيد النساء، وغواية الفحشاء، فلا ينطفئ نور قلبه ويفقد حب ربه ويحول الشيطان بينه وبين المعرفة

الإلهية، ويخشى يوسف على قلبه وتنتابه المخاوف، ويلقى بأحماله وأثقاله على ربه قائلا له كما جاء فى قول الله تعالى

وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَـٰهِلِينَ

ورأى يوسف أن النبوة وحدها لا تعصم الإنسان من الوقوع فى الخطأ، وكما جاء على لسان موسى عليه السلام فى القرآن الكريم "قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ" (القصص:١٦)، ولا عاصم إلا الله سبحانه وتعالى، وأن مسئولية الإنسان تقع على قدر طاقته "رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ" (البقرة: ٢٨٦). وأن كل ما هو فوق الطاقة يعلمه الله، ويبقى بين يدى رحمته.

فليحذر الإنسان أن يلقى بنفسه فى هاوية الجهل السحيقة، فإنها أعمق من غيابة الجب التى ألقى فيها يوسف عليه السلام. وعند مخالفة النفس والشيطان واستمرارية القلب على طهارته وصفائه أيقن يوسف أن ربه لن يتخلى عنه، فاستجاب لدعائه حتى يتمكن من تأدية دعوته وتحقيق أقدار الله فى أرضه ليؤمن أهل مصر بعبادة الله الواحد، فالقدر يحمى صاحبه حتى ينفذ.

ولما أحس يوسف بأن الله فى قلبه امتلأ بكل المعانى الروحية والكلمات الإلهية، ولقد وضح ذلك من التعبير القرآنى فى قول الله تعالى

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

واستجابة الدعاء عند يوسف عليه السلام فتحت له بابا من أبواب علم الغيب، فعلم أنه سيساق إلى السجن، ولذلك تسلح يوسف عليه السلام بالصبر بعد ما جاءه من العلم، والصبر يقوم على العلم "قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا"(الكهف:٦٧-٦٨)، ولا يقوم على الجهل،.وتلك من طبيعة أخلاق وعلوم الرسل والأنبياء.

وتهيأ يوسف عليه السلام للسجن وأنه سيبتعد عن عالم امرأة العزيز وما يتوقعه من إيذائها وتسلطها عليه بعدما أذل كبرياءها، ولم يحقق لها مآربها وتطلعاتها وهى آمرة وحاكمة.

وهكذا صرف الله عن يوسف كيد امرأة العزيز، فيوسف فى موقف التجلى مع الله سبحانه وتعالى، فقد تجلى الله عليه باسمه السميع، وباسمه العليم، ولله الأسماء الحسنى، فالله يتجلى على عباده بأسمائه الحسنى.

فلما دعا يوسف ربه تجلى الله عليه باسمه السميع، فسمع دعاءه، وتجلى عليه باسمه العليم فعلم ما هو فيه، وكما جاء فى قوله تعالى" إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ". لقد كان يوسف فى لحظة مقدسة، شهدت تنزل ملائكة اسم الله السميع من كل سماء، فعلم يوسف أن الله قد سمعه، ثم تنزلت ملائكة اسم الله العليم فأدرك يوسف أن علم الله يواليه.

فدعاء يوسف فى حال تنزل ملائكة اسم الله هو دعاء باسمه الأعظم المتجلى به على الكون بأسره، حيث يتجلى الله سبحانه وتعالى بأسمائه وأحواله على الكون، ولا يرصد هذه التجليات إلا أصحاب القلوب الطاهرة والعيون التى لا تغفل عن عبادتها لله، والتطلع إلى سماواته وملائكته وأنواره وجناته، وذلك هو مقام الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ويحظى الإنسان الذى يعمل الخير برؤية الله له.

وقد تعلمنا مثل هذا العلم من أحوال ولى الله سيدى على السماك، حيث كان يتعرف على ملائكة الله حسب وظائفها وتبعا لانتمائها لطبقات السموات العلا فيعلم أن الله سبحانه وتعالى متجل فى هذه

اللحظة باسم من أسمائه الحسنى، وذلك ما تعلمه آدم عليه السلام من ربه "وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (البقرة: ٣١).

ومن البديهى أن يوسف عليه السلام كان يعرف أسماء الملائكة ويعلم وظائفها واختصاصاتها، ثم إنه لا يكتمل الإيمان بالله إلا بالإيمان بالملائكة ، كما يتأرجح الإيمان بالملائكة بين الضعف والقوة، وهذا ما يفرق بين مؤمن ضعيف الإيمان ومؤمن قوى الإيمان، فكأن يوسف من باب أولى مطلع على العلوم والأسرار، وتلك التى تؤكد له أن الله يتجلى على كونه برحمته وعزته وعلمه وجلاله وأسمائه الحسنى، ولكل من هذه الصفات والأحوال والأسماء ملائكة تعمل لخدمة الله فى ذلك الكيان الروحانى العظيم بديع السموات والأرض، أليس ذلك من لطائف

العلوم التى تجعل الإنسان على علم من ربه؟ وأليس هؤلاء الذين يعلمون من أمة سيدنا محمد كأنبياء بنى إسرائيل؟.

فيوسف من أنبياء بنى إسرائيل، فكان متحققا من ربه مؤمنا بأن الله اختصه بإحسانه ولطفه ورحمته، وهذا هو الثراء الذى احتفظ به يوسف وادخره ليبعث به متألقا يوم الموقف العظيم.

فالدعاء إلى الله باسمه المصاحب للتجلى الإلهى، حيث تنتشر ملائكة ذلك الاسم العظيم فى السموات والأرض وهى ساعة تجلى الله باسم من أسمائه الحسنى، فيكون الدعاء مستجابا ويوصف هذا الحال بأن الله قد تجلى باسمه الأعظم، ومن هنا يكون الدعاء فى الحال وفى اللحظة وفى المناسبة وفى التجليات الربانية، وهذا هو اسم الله الأعظم

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم فقال: إسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب"(الطبرانى). وتلك شفافية روحية تربط ما بين علم الله وعلمائه، كما جاء فى قوله تعالى فى سورة الكهف "فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا.(الكهف:٦٥)[1]

فأولياء الله فى درجاتهم الرفيعة يعرفون طرق السماء الموصلة إلى الله سبحانه وتعالى أكثر مما يعلمون عن طرق الأرض، وهؤلاء هم العلماء بالله، قال صلى الله عليه وسلم " علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل " ، وكأنهم يتجولون فى السماء أكثر مما يتجولون فى الأرض.

فالمعرفة بالله سبحانه وتعالى طرق ومسالك، ودرجات وارتفاعات وسمو فى حياة طاهرة تسبح فيها قلوب عامرة بالإيمان، وقد انشرحت وفتحت أبوابها للقاء ربها ونوره العظيم الجميل.اللطيف. وتسبح الأرواح لتمضى وقتا فى رحاب الله سبحانه وتعالى كى تسبحه كثيرا وتحمده كثيرا فى إطار من الحب الطاهر المتبادل المؤيد بعظمة الله وجلاله وحفظه وقوته، وفى هذه الحال يتجلى ربنا عز وجل بقوله فى الحديث القدسى" من عادى لى وليا، فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها "(البخارى).

١- راجع كتاب رحلة من أجل العلم للكاتب.

وما أجمل تسبيح الروح مع الملائكة المسبحة! وسجود القلب مع الملائكة الساجدة! وبراءة النفس مع الملائكة الطاهرة ! إنها لحظات وأوقات يتغنى بها أهل الصفاء والنقاء كما جاء فى قولهم "نحن فى لذة روحية لو علم بها الملوك لقاتلونا عليها" لقد فتح الله سبحانه وتعالى عليهم نافذة فى السماء فكيف لا يطلون منها وقد جذبتهم بمشاهدها ونعيمها، فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مثل ذلك النعيم الذى وصفه الرسول بجنات الله يخص الله به الأنبياء والرسل والمقربين من الأولياء والشهداء، وكان الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على هذا المستوى الفائق العالى فى اتصاله بالله سبحانه وتعالى، فله قلب متودد إلى الله وله روح سابحة نحو أنوار الله.

وبينما كان يوسف عليه السلام يدعو الله حتى يباعد بينه وبين الغواية، استجاب الله له، وعلم يوسف أنه سيدخل سجن الدنيا بعد حين، وأن الله سيرعاه ويحفظه فى كل حين، وحينما تهيأ يوسف عليه السلام روحانيا وارتدى لباس التقوى أيقن بأن موعد سجنه قد اقترب، فليدخل السجن وهو برىء بينما يعلم الجميع براءته وطهارته، وأن الظلم الواقع عليه يزيد شفافية القلب، ولا يملك إلا أن يلهج لسانه بالدعاء، وذلكم هو ذكر الله فى الشدة أو فى الرخاء، كما يتجلى الله بأحاديثه القدسية ليلقى فى روعه بأنه معه يحفظه ويرعاه ولا يفارقه.

ونعود إلى يوسف فى محنته لنرى أن الله يستجيب له وقد علمه منذ نشأته كيف يرجع ويعود ويؤوب إليه، فكلما أتاه يوسف بتلك التربية الروحية وجد الله قريبا منه وقد صافحته ملائكة السماء وتألق وجهه بنور الله وعزته وقوته ودفاعه كما جاء فى قول الله تعالى "إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ" (الحج: ٣٨).

لقد ظن أصحاب النفوذ والحكم أنهم قادرون على إذلال يوسف بسجنهم هذا ولم يفطنوا أنه محصن بقوة الله وسلطانه العظيم، وأن الله سيضىء قلبه بالنور والأمل ويلقى فى روعه بالاطمئنان والصبر الجميل. لقد بدا إصرار امرأة العزيز على سجن يوسف واضحا، ولا بد من التخلص منه ولو مؤقتا، فإن ثورة الغضب تحطم العواطف والمشاعر الإنسانية النبيلة ولا رجعة لقرار ظالم يتأجج بنار الغيظ ويقوى بشهوات النفس وسوء تربيتها.

كل ذلك رغم الاقتناع بشخصية يوسف التى انطوت على الأمانة والشفافية والصفاء والنقاء، كما أثبتت الأيام صدق يوسف واقتناع المحيطين به وبمثاليته ونهجه الأخلاقى ومدى تأثيره الروحى على أرض تلك الحياة، فإن كانت الحياة كالحديقة المنسقة فإن مثالية يوسف ورسالته فى الحياة كالشجرة الخضراء التى تمتلئ بالأزهار والثمار ويستظل الناس بظلها ويأوون إليها، وهى شجرة فى عالم الروح نورانية مباركة يسعى إليها كل حزين ومضطرب، بل كل بائس ومظلوم.

وتلك هى إشراقة يوسف فى مجتمعه، وقد تأيدت بالآيات والبراهين الدالة على مكانته الروحية وأصبح بالضرورة له جمال روحى أخاذ وإشراقة تطل على وجهه، وتلك المواهب الروحية جعلت منه قيمة يفتقدها التعساء والسعداء على السواء، وتتهادى آيات القرآن بجاذبيتها ورشاقتها لتؤكد تلك المعانى السامية المؤكدة صدق ما يتمتع به يوسف من آيات وبراهين رغم كل النوايا السيئة التى عانى منها يوسف، سواء من إخوته أم من امرأة العزيز، وما ينتظره من أحداث فظيعة ليكون مآله إلى السجن، وجاء ذلك فى قول الله تعالى

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ

فالذين بيتوا بالحكم عليه بالسجن قام حكمهم هذا على ما بدا لهم، فظنوا أنهم أصحاب القدرة، ولا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى هو أحكم الحاكمين، وأن ما بدا فى نفوسهم من سجن يوسف حتى يبعد ويقصى عن امرأة العزيز لم يكن إلا قدرا من أقدار الله وتحقيقا لما اهتدى إليه يوسف من ضرورة ابتعاده واعتصامه بالله حتى ولو كان ثمن ذلك أن يلقى به فى غياهب السجن، وحينما يدخل يوسف السجن سيبتسم من ترتيب الأحداث وتحقيق الأقدار وفى ذلك تسليم كامل لإرادة الله ومشيئته وحكمه، فعلى يوسف أن يتحمل السجن بقيده، وعلى الله أن يمد يوسف بعونه وفرجه.

هكذا بدأ يوسف حياة أخرى فى داخل السجن، وحينما يسجن يوسف مظلوما فله دعوة تخرق السموات، وهذا تأهيل روحانى يتوج مكانته الروحية ويرفع من درجاته الرفيعة، وينعكس على علمه المستمر والمتزايد (وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا).

إن السجن المظلم الكئيب لا يكون إلا نورا على نور، وقربا من بعد قرب، وبركات تضاف إلى بركات، فتألق يوسف فى حياة روحية فذة جعلته أكثر قربا لله سبحانه وتعالى، ولو دعوه وهو فى هذه الحال للخروج من هذا السجن ما خرج.

وفى اللحظات الحاسمة والشديدة يستشعر الإنسان عطف الله ورحمته عليه وقربه منه، ولولا الشدائد ما عرف الإنسان ألطاف الله ورحمته، وهكذا زالت الشدة ولم تعد، وأضاء الله سبحانه وتعالى بنوره قلب يوسف عليه السلام، فاطمأن وهدأ وازداد علما، وانكشفت له المعانى والحقائق، فأبصر ببصر الله، وسمع بسمع الله، وعرف بعلم الله، وذلك هو التقاء العارف بالمعروف.

يوسف فى السجن

ودخل يوسف السجن مقتنعا بما ألقته المقادير، رغم أنه لم يكن مذنبا أو متهما، كما لايخفى على يوسف أنه قد يلقى به فى السجن سنوات طوالا ويبقى فى عالم النسيان، فهو سجن ليس له مدة أو نهاية، وقد ينسى الذين أدخلوه السجن أن فى السجن بريئا يجب أن يخرج بعد حين، وأن سرعة الأحداث وكثرة التقلبات وما قد يحدث من نسيان قد يكون سببا فى استمرارية يوسف فى السجن حتى الموت.

وتلك الهواجس والأفكار قد تنفذ إلى عقول المساجين، ولكن إيمان يوسف عليه السلام يطارد مثل هذه الأفكار وتلك التوقعات، وبالتالى سيدخل السجن راضيا بما قسم الله له مع إيمانه القوى بالقضاء والقدر، وأن يوسف سيكتسب من سجنه هذا قدرا روحيا كبيرا، مما يجعله أكثر قربا من الله سبحانه وتعالى، لأن ما يتمتع به من شفافية قد أزالت ما يحيط به من جدران، فكشفت له السماء عن أسرارها، فأصبح قرير العين مطمئن النفس، ومادام الأمر كذلك فهو بين يدى الله يحفظه ويرعاه.، فقد حدث ليوسف تألق ولمعان روحى كبير وكأنه لم يحظ به من قبل، وكل ذلك دفعه إلى هدوء نفسه وطمأنينتها.

ومع ذلك فإن ليوسف رسالة دينية تلح عليه بضرورة الخروج من السجن ليحطم الأصنام ويدعو الملوك والحكام إلى عبادة الله الواحد الأحد القهار. فالاطمئنان على النفس يتضاءل فى مقابل الدور الذى ينتظره يوسف، فالفارق واضح بين من يبحث عن الذات وبين من يبحث

عن الله لعبادته التى تقضى على الظلم فتشرق شمس العدل والحرية على ربوع الأرض وينعم الناس بالحياة المطمئنة.

ومرت الأيام على يوسف فى سجنه هذا، ففى كل يوم وليلة يزداد علما من لدن الله سبحانه وتعالى، حتى أصبح الغيب وكأنه واقع ملموس، فقد أطلعه الله على أخبار الأرض والسماء فازداد فى سجنه توهجا نورانيا وجمالا روحيا انسكب على قلبه وروحه ووجهه مما زاده سجودا وتسبيحا وتعظيما لله، وتلك هى السعادة الروحية التى نالها يوسف لقاء حفظه لعهده مع الله سبحانه وتعالى، مثل هذه السعادة يفتقدها أكثر الناس، فإنَّ هموم الحياة ومشاغلها وأطماعها تعصف بهدوء النفس وسلامة القلب وانشراح الصدر، وهذا من شأنه أن يحجب الإنسان عن الطبيعة النورانية التى تفتح له نافذة فى السماء ليطل من خلالها على ملائكتها ويرقب أنوار الله المقدسة.

وقد يختار الإنسان المنشغل بأحداث الأرض وأطماعها نافذة له تطل على الهموم والمشاكل، مما يعكر من صفوه فيفتقد الكثير من المعانى الروحية، ولن يكون من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، فأى نافذة أولى أن يطل الإنسان من خلالها؟.

فالفارق واضح بين إطلالة يوسف من نافذة أرادها الله له ليطل من خلالها على ملكه ونوره وأسراره وجلاله وسلطانه، وبين نافذة أخرى قد يطل منها ملك أو حاكم على كنوز الأرض من ذهب أو بترول أو شهوات هذه الأرض وميله وحبه للسيطرة وبسط النفوذ على قومه، فلا ينتبه مثل ذلك الإنسان إلا حينما يستشعر الموت يأتيه ليلا أو نهارا، وقد عبر الرسول الكريم عن ضرورة تطهر النفس لسلامتها والمحافظة عليها بقوله "إن آخر ما يخرج من رذائل النفس الإنسانية حب الرئاسة."

وبعد أن توغلنا فى داخل السجن لنطمئن على يوسف وجدناه كوكبا فى سجنه تحفه الملائكة من كل جانب، وقد استوقفتنا هيبته حتى لا نقترب من جلال مجلسه، ولكن السجن عاد مرة أخرى ليفتح أبوابه لا ليخرج يوسف، ولكن ليدخله اثنان من المساجين ثم يغلق الباب مرة أخرى، ولكن باب الله يبقى مفتوحا لاستجابة الدعاء ونصرة المظلومين.

رؤيا السجينين

ويقول الله تعالى:

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَانِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّىٓ أَرَانِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

ودخل هذان السجينان وكأنهما ضيفان على يوسف عليه السلام ، فقد يحسدان على أنهما التقيا بمن أحبه الله ورعاه، وتلك حالة نادرة لا تتحقق لكثير من السجناء، وقد جمع القدر بينهم جميعا، ومن الطبيعي أن من يسجن مع يوسف قد أصابه الحظ ولن يخرج كما دخل، فقد ناله شيء من النور والهدى، ولعل بمجرد اختلاطهما بيوسف سيتأثران بما يحمله من مبادئ ومعان سامية، وتلك من بشائر رسالته في المجتمع، وأن السجن لن يحول بينه وبين تأدية رسالته هذه ولو فى تلك الحدود الضيقة.

لقد أيقن هذان السجينان من الوهلة الأولى أنهما أمام إنسان كريم وعالم جليل، وذلك لحسن استقباله وما لمساه من طمأنينة نفسية، وهذا شأن العلماء فى أقوالهم وأفعالهم وفى حديثهم وصمتهم، كما أن ملامح الوجوه لها دور فعال فى التأثير، فالعالم لا يعتمد على لسانه بقدر ما يعتمد على خلقه ووداعته وحسن استقباله، وعليه أيضا أن يستمع وينصت وينظر إلى محدثه ولا يتكبر على الناس فلربما يتعلم منهم.

وكان يوسف عليه السلام فى مثل هذا المعنى، وهذا من شأنه أن يجعل لهذين السجينين أحلاما فى داخل السجن، فقد رأى كل منهما فى نومه رؤيا منامية، وفى عصر يوسف كان للرؤى أهمية بالغة، فالإنسان فى ذلك العصر كان لا يزال يعيش على الفطرة الروحية التى يسترشد بها فى تصرفاته وتطلعاته، وهذا مما يؤكد أن الإنسان الأول حينما أودعه الله هذه الأرض كان على درجة عالية من الحياة الروحية، التى تساعده على استمرارية حياته على الأرض.

فالنواحى الروحية كانت متقدمة ولا تقل عن القوة العقلية، حيث إن القوة العاقلة فى الإنسان كانت بدائية لقلة الخبرة وحداثة الإنسان على الأرض مما جعله لا يستطيع أن يميز بين المفترس

والأليف من حيوان وطير وزواحف إلا بعد تجربة، وكذلك لا يميز بين أرض طينية تكثر فيها المستنقعات التى تغوص فيها الأقدام، وأرض صلبة تتحمل أقدام الدواب، وهكذا صعبت التفرقة عند الإنسان الأول للدرجة التى لا تجعله يتعرف على مخاطر الحياة، فاعتمد الإنسان على موهبته الروحية التى كانت مهيمنة على تصرفاته وحركته على الأرض.

وقد تندثر تلك الموهبة الروحية حينما يهمل الإنسان استخدامها، لا سيما أنها لا تتعارض مع العقل والفكر، فإن من يجمع بين الطبيعة الروحية والعقل فهو إما أن يكون نبيا أو وليا، من أجل ذلك يلقى القرآن الكريم بضوئه على الرؤيا المنامية سواء أكانت فى السجن أم فى القصر.

فقصة يوسف عليه السلام تجعل الإنسان فى العصر الحديث يطل من نفس النافذة التى أطل منها يوسف على عالم الأرض والسماء، وهى تأكيد على ضرورة تدعيم النفس بالروحانيات التى يتقرب من خلالها الإنسان لربه، كما يدافع الإنسان من خلالها عن نفسه وأهله ووطنه، وقصة يوسف عليه السلام أيضا تضع لمساتها الروحية لتدعيم الإنسانية على هذا المستوى الثقافى، وهى بذلك برنامج تعليمى لا يجب إغفاله فى كل المجتمعات الحديثة فى عالمنا المعاصر.

واستسمح القارئ الكريم بأن أصحبه معى إلى سجن يوسف عليه السلام زائرا وليس سجينا، ليلمس بنفسه بعضا من العلوم الدينية، حيث ينقلب السجن إلى فصل تعليمى، ويتحول فيه يوسف السجين إلى معلم روحانى يتحدث بالعلم اللدنى، ويتنبأ بالغيب الذى يطلعه الله عليه، وكيف أن الغيب عند يوسف قد تحول إلى واقع يتعايش معه، فالغيب عنده حديث يومى لا يثير اهتمامه ولا يستوقفه كثيرا، فهى لغته فى عصره.

وفى السجن مع يوسف عليه السلام دخل صبيان كانا يعملان فى القصر، أحدهما كان مختصا بتقديم الشراب، والآخر كان مختصا بصناعة الخبز. ولقد رأى كل منهما فى نومه رؤيا، وطلبا من يوسف عليه السلام أن ينبئهما بتأويلهما. الأول رأى أنه يعصر عنبا ليكون خمرا، والآخر رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه، ولقد دعاهما الاهتمام بالغيبيات إلى ضرورة التعرف على المعانى والأخبار، حيث إن الرؤيا هى أحد علوم الغيب التى تستخدم فى المعرفة، وهى من الأدوات التى يخاطب الله سبحانه وتعالى من خلالها الإنسان، وهذا راجع إلى إرادة

الله ومشيئته، ولهذا فإن الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يقول " الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة "(مسلم).

ولقد وصف هذان السجينان يوسف عليه السلام بأنه من المحسنين، مما يدل على أن يوسف عليه السلام كان فى علمه ومعرفته كالقمر حينما يسطع فى الليلة الظلماء، ولقد توسم فيه صاحباه فى السجن العلم والمعرفة والمقدرة على التأويل والتنبؤ بالغيب، وهذا من أبسط العلوم والمعارف التى تظهر وتتضح فى حياة الصالحين المقربين لله رب العالمين، وأضاف يوسف عليه السلام كلمات تؤكد لهما الحقيقة والتصديق الكامل بما يراه فى عالم الغيب، فقال لهما فى قول الله تعالى

قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ* وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ

وهذه الآية القرآنية أكبر دليل على التنبؤ ومعرفة الغيب، وهذه من نعم الله على الناس، وكان ولا بد أن تقابل هذه النعم بالشكر لله القائم على التصديق والإيمان الكامل، ولكنها فى عصرنا هذا قد تقابل بالجحود والنكران والتجاهل من بعض الذين يؤمنون بالدين كنصوص ويفتقدون فى نفس الوقت تذوق روحانيات الدعوة بدعوى أنه لا يعلم الغيب إلا الله، ومن الحق أنه لا يعلم الغيب إلا الله، ولكن الله سبحانه وتعالى يطلع على غيبه من يشاء من عباده، فلا يجوز لإنسان أن يكبل الله سبحانه وتعالى، ويحد من عطائه ونعمته وعلمه ومعرفته، فيزعم أن الزمن قد انتهى، وأن الله لم يعد يؤتى غيبه أحدا.

لقد تنزلت هذه الآية القرآنية على قلب الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لكى تبرز روحانيات الدعوة الإسلامية التى تؤمن بأنبياء بنى إسرائيل من يعقوب عليه السلام إلى المسيح عليه السلام الذى كان ينبئ الناس بما يدخرون فى بيوتهم وما يأكلون، وهذا ما كان عليه يوسف عليه السلام، حيث أخبر زميليه فى السجن بما كان سيأتى لهما من طعام.

فأراد يوسف عليه السلام أن يطمئن هذين السجينين بما يتحدث به من تأويل الأحاديث وما يخبرهما به عن نوعية الطعام قبل أن يأتيهما، فقد اعتادا تصديقه فيما يخبر به، وهذا سييسر عليهما الإيمان بيوم القيامة وكذلك الإيمان بالله الواحد، ولم يشأ يوسف عليه السلام أن ينسب علمه إلى نفسه، ولكن نسبه إلى ربه الذى علمه، حتى لا يكون فتنة فيؤلهه الناس أو يشركون مع الله أحدا. وفتح يوسف قلبه لرفيقيه فى السجن قائلا لهما ما جاء فى قول الله تعالى "إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ"

فإيمان أهل مصر آنذاك كان يقوم على أن الروح ستعود تبحث عن الإنسان لتعيد إليه الحياة، ولهذا كانوا يقومون بتحنيط أجساد الموتى وينحتون لهم التماثيل من الذهب أو من الحجارة، واهتم الملوك والحكام اهتماما بالغا بهذه العقائد فشيدوا المقابر وبنوا الأهرام. وكلما كانت المقابر عظيمة وضخمة كلما دل ذلك على سمو المقام والرفعة، بل إن مقابر الملوك التى قامت على هيئة أهرام تفشى سر تخوف الملوك والحكام من الموت حتى بدا كل هرم وكأنه عقدة نفسية تخفيها النفس الإنسانية، وتصور الأهرام المختلفة حجم هذه العقدة، وتلك من أهم الدراسات النفسية المعبرة عن كراهية الإنسان للموت. ويؤيد ذلك ما جاء فى الحديث القدسى عن رب العزة حيث يقول "عبدى يكره الموت وأنا أكره مساءته" (البخارى).

لقد اصطبغت الحياة المصرية القديمة بالدين الذى يعبر عن أحاسيس الناس وآمالهم فى الحياة، فراحوا يضعون الحبوب فى التوابيت ويرسمون عليها صور الطيور وكل ما يشتهون حتى إذا ما عادت الروح للموتى فإنها تعود أيضا للحبوب والطيور ليجد الميت طعامه متوفرا ودون عناء، ودفعتهم هذه العقائد نحو الرقى فى فن التحنيط والتشريح والطب وممارسة السحر والتقدم فى علم الفلك والهندسة كأثر مباشر لمعتقداتهم الدينية، وقدم الحكام للشعب المصرى رموزا دينية كالعجل والأفعى والشمس وغيرها لتكون معبودات تعبد على هذه الأرض، واعتاد الناس مثل هذه المعبودات، وكونوا لأنفسهم العقائد الدينية المقدسة.

وانبرى الحكام للدفاع عن هذه العقائد كوسيلة لتوحيد الصفوف وكسبا لرضا الشعب عنهم، وبالتالى أتاحوا الفرصة للكهنة ليكونوا وسيطا بينهم وبين شعوبهم، وأصبح للكهنة عمل يقتاتون منه من خلال دورهم الدينى الذى يؤلف بين الحاكم والمحكوم. وكان للكهنة ترانيم

وأناشيد يعلو فيها الصوت وينخفض ليتغنى وادى النيل برموزه المقدسة من تلك المعبودات، ويتغنى بالحكام الذين يحافظون على هذه الرموز وعلى الأرض والسكان.

فالناس فى زمنهم لم يعرفوا الله حق معرفته، فلم يروه ولكنهم رأوا فرعون وجنوده وعاشوا فى حمايته وأسطورة حكمه، وكان ذلك يجرى فى زمن يوسف عليه السلام، فهل كان ذلك سيدفع يوسف إلى مجاراة الحكام وأهل البلاد فى عاداتهم طبقا للشعر الذى يقول "وأرضهم فى أرضهم ودارهم فى دارهم، ومابقيت جارهم ففى هواهم جارهم"، أم أن يوسف عليه السلام بما أنزل الله عليه من العلم والحكمة سيعمل على تغيير ملامح هذا المجتمع ويدعو بأفكاره لجذب الشعب المتدين إلى العقيدة الصحيحة القائمة على وحدانية الخالق.

نعم سيتولى يوسف فى دعوته توجيه الإنسان نحو الدين القيم الذى فرضه الله دفاعا عن الحق وتأكيدا على دور الإنسان فى الحياة بإرادة حرة وحياة آمنة مستقرة، وأن التغيير ضرورة لإنهاء الاستغلال وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وألقت المقادير الإلهية بيوسف فى أحضان القصور ليبدأ رسالته مع القادة والحكام الذين إذا ما آمنوا آمن الناس، والناس على دين ملوكهم.

وهذه هى رحلة يوسف إلى الحكام والملوك، وتبعه فى ذلك من بعده موسى عليه السلام، حينما أمره الله أن يذهب إلى فرعون بقوله تعالى "اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى" (طه-٢٤)، ولكن موسى عليه السلام قدر خطورة الحديث مع فرعون، لاسيما وأن الحديث يدعو فرعون إلى أن يتخلى عن ألوهيته وبالتالى يفقد شعبيته ويتزعزع حكمه كما سيثور عليه الكهنة الذين يعيشون فى بحبوحة من العيش حفاظا على دورهم كوسيط بين الحاكم وبين الرعية. فعاد موسى الى ربه خائفا متوجسا من بطش فرعون، طالبا منه أن يصطحب أخاه هارون ليكون عونا له، ودعا الله أن يوفقه فى مهمته الصعبة كما جاء فى قول الله تعالى "قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي* وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي* وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي* يَفْقَهُوا قَوْلِي* وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي* كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا* وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا* إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا*" (طه: ٢٥-٣٥).

ولا يزال يوسف عليه السلام سجينا ولكن قلبه ممتلئ بالحكمة والإيمان، وكان ذلك هو الزاد الذى يتزود به يوسف فى سجن ضيق، وامتلأ صدره بالعلم والحكمة حتى فاض وانسكب فى السجن ليتذوق من هذا النبع من فى السجن، فخرجت المعانى تحملها الملائكة حتى تهبط بها فى عقول وقلوب من حوله من الناس، فقال كما جاء فى القرآن الكريم

يَـٰصَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.

وبهذا القول الفصل كشف يوسف عليه السلام عن معتقداته، تلك التى تختلف عن المعتقدات الشائعة فى عصره، وإن هذه المفاهيم الدينية إذا تسربت الى أسماع الحكام ورجال الدين فلن تقابل بالرضا أو الاقتناع لسبب بسيط، فقد يرونها هدما لنظام حكمهم تبعا لتوالى الحكام وبالتالى تعدد المعبودات، واعتاد الناس فى عصرهم أن يتقبلوا أربابا وآلهة متفرقة، بل ومتضاربة، فمن يؤمن بالأفعى وهى رمز للموت، ومن يؤمن بالشمس وهى رمز للحياة، وتلك هى طبيعة مثل هذا الشعب الذى يتسع إيمانه للآلهة رغم تعددها، حتى وإن تباينت واختلفت وتضاربت.

فمهمة يوسف عليه السلام فى دعوته لله الواحد كانت شاقة وعسيرة فى نفس الوقت، ولكن يوسف بحكمته وبرعاية ربه يستطيع أن يدخل إلى هذه القلوب، كما يمده الله بالمعانى والإلهامات التى تيسر له مخاطبة قومه هؤلاء.

فدعوة يوسف عليه السلام الممتدة من أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام نبتت من جديد على الأرض الطيبة فى مصر لتزدهر عبادة التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى، وهذا يدعو إلى ضرورة التفكر فى خلق السموات والأرض وما بينهما، وهذا بطبيعته يؤدى إلى اتساع الآفاق الفكرية حتى تصل الى آفاق الأرض والسماء.

وتلك وحدها دعوة للتفكير واستخدام العقل ينعكس أثرها على تقدم المجتمع ورقيه، فالمعتقدات البدائية كانت تتأثر بالمصالح المختلفة والسياسات القائمة، حيث يتأثر الإنسان بالمنع أو المنح والتحريم أو التحليل وفقا لمتطلبات الأمور الجارية على حسب الأهواء والرغبات والنزعات، بينما عبادة الإله الواحد لا تتأثر بالرغبات المتضاربة والمصالح الشخصية التى قد يتضرر منها الناس فى حياتهم.

فكلمات الله إلزام يخضع له الحاكم قبل المحكوم، حتى يتحرى العدل والحق والصدق، وتلك من ركائز المجتمع الأمين والسليم لازدهار حرية الرأى والقيم والمبادئ التى تحافظ على أمن الإنسان واستقراره من أجل حياة فاضلة تليق بتكريم الله للإنسان، فكلمات الله هى التى تضع البسمة على كل شفاه، وهى التى تسوق الحياة إلى مواطن الجمال، سواء أكانت على الأرض أم فى الأخلاق والتعامل بين الناس، وذلك ما يدعو الله إليه ويوحى به ليتحقق المعنى من وراء الخلق، وليؤدى الإنسان دوره فى الحياة.

واستأنف يوسف حديثه عن تلك المعبودات التى اختلقها الإنسان لتعبد على هذه الأرض، وبين ما لها من أضرار بالغة يتأثر بها الناس فى حياتهم، حيث إن تلك المعبودات يمكن أن تحمل القناطير من المعانى والتوجهات الخاطئة، بل يستطيع كل كاهن أن يضع رغباته وأهواءه وتعاليم كثيرة تظلم الإنسان على هذه الأرض، وتزيد من حيرته، وتعصف بآماله وحياته.

وقد برع أمثال هؤلاء الكهنة فى علوم السحر، وتسخير الجان، فوضعوا الرموز والطلاسم على مداخل البيوت والقصور والمقابر، حتى إذا حاول اللصوص اقتحام بيت أو قصر أو مقبرة، فإن أهل الجان يكونون له بالمرصاد، وهذا من علوم السحر التى تختلف عن علوم الله التى تحفظ الإنسان بحفظ الله ورعايته وأمنه وسلامه.

فمن ذهب إلى السحر، أغفل العلم، وتقرب من المخلوق، وابتعد عن الخالق، وبهذا لا ينظر الإنسان إلا تحت قدميه، ولا يعلم أن الله هو خير حافظا وهو أرحم الراحمين. ولقد أجمل القرآن ما تحدث به يوسف عن ضرورة عبادة الله الواحد كما جاء فى قول الله تعالى

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

بعد هذا القول الفصل والخطاب الواضح والدرس المؤثر، استمر سيدنا يوسف عليه السلام فى حديثه لصاحبيه فى السجن موضحا ما تخبئه الأقدار لهما من أحكام الله سبحانه وتعالى مفسرا لما ارتأياه فى منامهما، فقال بصوت ملؤه الحزم، وكأنه يصدر أحكاما نهائية بما علمه الله من تأويل الأحاديث، فيتحدث متحققا مما يقول دون أن يساوره ظن أو شك أو احتمال، فقوله

فصل مبتعد عن الهزل، وتأويله أمر نافذ، وكأنه دعاء مستجاب، ولا مجال للخطأ فى التأويل أو التفسير، فقد أصبحت الكلمات حكما نافذا، وبهذه الشفافية يتضح مدى قربه من ربه، وعلى الجانب الآخر أهمية وخطورة ما يكشفه لجلسائه فى السجن، ويؤكد الله ذلك فى القرآن الكريم بقوله تعالى

يَـٰصَـٰحِبَىِ السِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ الأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ

ويفكر سيدنا يوسف فى أقدار الله وكأنها درس يتسلل إلى أعماقه ليزداد تحققا من أمر الله الذى إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فسبحان الله عما يصفون، وبنور الله يهتدى المهتدون.

ويبقى الدرس قائما يتناقله علماء الله ليرثوا من يوسف ما كان عليه من درجة رفيعة وعلم ربانى يملأ قلوبهم بالنور والهدى، ويجعلهم أقرب مجلسا من ربهم. فالعلوم الروحية لا ينبغى لها أن تحتجب أو تنكمش فى قلوب العلماء، هؤلاء الذين قال عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم " علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل" ،وكما جاء فى قول الله تعالى " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ".

وذلكم هو العلم الذى يجب أن يرتشف من مائه العلماء ويتوضأون من نبعه، وقال أحد العلماء " توضأ بماء الغيب إن كنت ذا علم، أو تيمم بالصعيد الصخرى". فيوسف عليه السلام علامة مضيئة فى طريق السالكين فى الطريق إلى الله، وأثر روحى خالد لا تتجاهله مناهج العلم حتى يكون الدين قيما يلتقى فيه المعلم والتلميذ، والشيخ والمريد.

لعل تلك الإشارات العلمية تشحذ همة المشفقين على أمر دينهم وتجعلهم يبحثون عن نماذج تصلح للتعليم والتعلم ليعود الدين إلى طابعه الروحى الأصيل، وينهل الناس من منابعه، فترتدى الفضيلة أبهى ثيابها، ويحافظ الناس على العهود والمواثيق، ويتمسكون بالقيم والمبادئ التى تعود على حياتهم بالأمن والاستقرار والطمأنينة.

إن الأحكام التى أعلنها يوسف لصاحبيه فى السجن لم تصدر عن خيال واسع أو تنبؤ يمكن حدوثه، فقد صدرت الأحكام عن إلهامات صادقة لا تخطئ، وإن أخطأت فإن التأويل فى حقيقته دعوة مستجابة، ولقد أول يوسف أن من يعصر عنبا ستكون مهمته تقديم هذا الشراب فى ساحة الحكام والملوك، وتلك إشارة إلى أن هذا الساقى سيعود إلى القصر ليقوم بعمله مرة أخرى، أما الذى يحمل الخبز فوق رأسه، فهذا ما جناه وصنعه ليحاسب عليه، فقدره محتوم، ولسوف يصلب على أى من جذوع النخل ليقتل ويكون طعاما للنسور والصقور الجائعة، وهكذا يلقى يوسف دروسه فى التفسير والتأويل ليؤكد أن الرؤى لا قيمة لها إلا بالتأويل والتفسير القائم على الإلهام وإشراقة النفس المطمئنة.

ولنا أن نتأمل فى موقف هذا الذى سيصلب وتأكل الطير من رأسه بعدما أخبره يوسف بمصيره الأليم وقدره المحتوم، فإن وقع هذا النبأ العظيم على النفس الإنسانية أشبه بالزلزال المدمر وأشد من الإعصار المخرب، ومع ذلك فإن مثل هذا الحدث لن يشقى صاحب يوسف فى السجن بعدما اطمأن ليوسف وآمن به فانسكب الإيمان فى قلبه واطمأنت نفسه بقضاء الله وقدره، وبذلك يكون التسليم والصبر والعزاء.

وتمضى الأيام والليالى على يوسف فى سجنه بينما تتخللها تلك الأحاديث التى تفيض بالمعانى وترمى إلى طمأنينة النفس وهدوئها، ويدرك يوسف أن ما تعلمه من ربه سيكون له خير أنيس وجليس، وقد علمه الله تأويل الأحاديث والتطلع إلى آفاق المعرفة، ولكن يوسف لم يخلق ليعيش من أجل نفسه، ففى صدره رسالة تتوهج بالنور وتبشر بالأمل الذى يذهب عذابات الناس ويعمل على إنهاء مشاكلهم، فاحتجاب رسالته يثير فى نفسه الألم ويشعره بمحنة السجن، فبات يفكر فى أمره لعله يجد مخرجا، لا سيما وأنه يؤمن باتباع الأسباب وضرورة المحاولة.

ومن الحكمة أن يطرق الإنسان الأبواب لعل بابا منها ينفتح ليحقق الإنسان آماله وما يصبو إليه. فالآمال التى ينشدها الإنسان تعطيه التفاؤل فى الحياة وتحقق له نوعا من السعادة، بينما خيبة الأمل تسبب الحزن والكآبة والتعاسة، فما من نبى أو رسول إلا إنسان يفرح ويحزن ويجوع ويشبع ويبكى ويضحك، فإن التجرد من مشاعر الإنسانية خطيئة تبعد الإنسان عن

إنسانيته، فإن لم يكن إنسانا فقد يكون إلها أو صنما يعبد فى الأرض، وتلك نظرة خاطئة عانى منها الكثير من الأنبياء والرسل من قبل شعوبهم.

ورغم إيمان يوسف بقضاء الله وقدره، إلا أنه كإنسان راح يفكر فى وسيلة يخرج بها من السجن، فهداه تفكيره أن يستعين بسجين معه ليحمله رسالة إلى الحاكم يشكو فيها من سجنه ويبدى تظلمه، وذلك بمناسبة توقعه بخروج هذا السجين الذى يلازمه فى سجنه كما جاء فى قول الله تعالى

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَـٰهُ الشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ

ونجا هذا السجين من سجنه ولكنه لم ينج من مسئولية حمل الأمانة، فلم يف بذكر يوسف عند رب نعمته وهو الملك،ونسى أن يذكر يوسف للملك، فقد أنسته الحياة بأهوائها وتطلعاتها ما يمكن أن يقوم به من دور حتى ولو كان ضئيلا أو قليلا، مما تسبب عنه إهمال يوسف فى السجن ليعيش سنوات تحت وطأة النسيان داخل جدران السجن المظلم، فإن التفريط فى الإيمان يقتل فى الإنسان حب الخير وأداء الأمانة وتحمل المسئولية، ويعقب القرآن بصوت يمتلئ بالحزن والأسى بما جاء فى قول الله تعالى

فَأَنسَـٰهُ الشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِين

وحيث إن القرآن الكريم منزل على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، يتخلله علما روحيا ليضع بين يديه الحقائق والعلوم التى مرت على الرسل الكرام، وكذلك ليرى ويشاهد ما كان عليه يوسف عليه السلام من شدة ومن ظلم، ورغم دقة تأويل يوسف لرؤى السجينين إلا أنه كان متسرعا، وذلك لتأكده من علمه، فقد صقل السجن مواهبه، فكان له ذلك البريق الروحى الكاشف لكل الحقائق والمظهر للأحداث، بل كان يكفيه أن يؤول ويفسر، فيكون ذلك بمثابة الدعوة المستجابة.

ومع ذلك لا تزال قضية سرعة التأويل قائمة لما لها من تجن واضح على القواعد المعمول بها في أحكام الله، تلك التى تتعرض من الله للمحو والإثبات، وقد ورد ذلك صريحا فى آيات القرآن الكريم "يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِت وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ". ولقد استقبلت الآية القرآنية التى نتحدث بصددها هذه الحقيقة بلطف واضح تعالج تسرع يوسف عليه السلام بالأحكام، وذلك حسبما جاء فى قوله تعالى"

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَـٰهُ الشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِث فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ

كلمة الظن تضع حدا للتصريح السريع فى تأويل يوسف عليه السلام، كما تشير آيات القرآن فى هذا الصدد إلى تسرع يوسف بالخروج من السجن فيما حمله للسجين من ضرورة ذكره عند الملك، ويبدو أن يوسف تعجل الخروج من السجن لأنه يرغب فى توسيع آفاق دعوته، ومادام ذلك هو حاله فإن يد الإنقاذ الإلهى لسوف تمتد إليه وتخرجه من السجن، فلقد دخل السجن بإرادة الله وسيخرج من السجن أيضا بإرادة الله، فلننظر فى كيفية تدبير الله فى هذا الأمر.

تأكد يوسف أن الأسباب لم تعد تجدى لإنقاذه من هذا السجن المظلم، فانصرف كلية إلى عبادة الله واستغفاره واسترحامه، فتغير حال يوسف واتخذ من تقوى الله رداء له، وكما جاء فى قول الله تعالى " وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ" (الأعراف: ٢٦)، وهنالك دعا يوسف ربه أن يخرجه من السجن، فكان لدعوته ارتياح قلبى يبشر باستجابة الله له، ولله إجابة شافية لكل القلوب المؤمنة، كما جاء فى قوله تعالى "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ "(البقرة: ١٨٦)، وجاء فى قوله أيضا " وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ إِنَّ اللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا" (الطلاق: ٢-٣) وازداد يوسف اطمئنانا بأن الله سيدبر له أمرا يكون سببا لخروجه من السجن.

رؤيا الملك

فى هذه الآونة رأى ملك مصر رؤيا هامة شهيرة صاغها القرآن فى آياته فى قول الله تعالى:

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ يَـٰٓأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ

لقد بدأ تدبير الله لإخراج يوسف من سجنه، فألقى الله فى روع الملك رؤيا منامية فحواها أن سبع بقرات ضعاف هزيلة يفترسن سبع بقرات قوية ضخمة، كما رأى سبع سنابل خضراء وسبع سنابل صفراء يابسة، فأعلن عن رؤياه لعل أحدا من كهنته يستطيع أن يفسر هذه الرؤيا، وهذا دليل على أن للرؤيا قيمة واضحة فى حياة الملوك وفى حياة الناس فى ذلك الزمان الذى كانت فيه الحياة الروحية ماتزال متواجدة كأثر من آثار آدم عليه السلام، لم ينته ولم يضمحل بعد.

وألح الملك على ضرورة تفسير رؤياه بما يعتقده عن مصداقية الرؤى. ويبدو أن له تجارب أظهرت له الكثير من الحقائق، وكشفت له ما تخفيه الأيام والليالى من أحداث، فالرؤيا فى عمومها هى إحدى وسائل الاتصال بين الخالق والمخلوق، فإذا ما أراد الله أن يذيع أمرا أوحاه إلى خلقه، فكل مخلوق مجهز لاستقبال أمر الله. ويحتل الإنسان المكانة الأولى فى مدى استجابته لنداءات الله له، بغض النظر عن إيمانه أو كفره.

فإذا ما أراد الله شيئا فإنه يلقى فى روع الإنسان ما يجعله يسلك سلوكا معينا يتفق مع أقدار الله وإرادته (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (يس-٨٢)

وإذا أراد الله أمرا أخذ من ذوى العقول عقولهم. فالإنسان والكائنات كلها فى قبضة يمين الله. ولقد بينت الحياة الروحية معالم الاتصالات التى تخاطب الإنسان من عقله وقلبه وفؤاده، حتى الأطفال الرضع أو هؤلاء الذين يكونون فى بطون أمهاتهم لا يفقهون شيئا يخاطبهم الله بقدرته وعلمه، فكل القلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيفما شاء وبما أراد وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها حيث يشاء". (الإمام أحمد والترمذى).

ولقد وضع الله قواعد اتصال لتكون أيضا همزة وصل فيما بين الإنسان وبين الله، وتلك هى طبيعة الحياة الروحية المشرقة التى تقدم للإنسان الشفافية والطهر والإلهام، ولكن الإنسان قد يفتقد مواهبه الروحية أو يقوم بتعطيلها من جراء كفره وفساده وبالتالى يفتقد الدعوة المستجابة والصلة المستمرة بينه وبين ربه، ولا يتبقى له من صلات إلا قدرة الله عليه، ليظل الإنسان خاضعا لإرادة الله وقدرته.

ونادى الملك فى قومه لكى يفسروا رؤياه، ولعل أحدا من كهنته العظام المقربين له يفكر فى تفسير هذه الرؤيا التى شدت انتباه الملك، حيث لم يجد لها عنده تأويلا ولا تفسيرا، فهل سيجد الملك جوابا شافيا ومقنعا يوضح له ما فى رؤياه من إشارات أو رموز، وبات الملك منتظرا الجواب.

وينتظر الملك جواب قومه، وبعد صبر طويل قالوا له إنها رؤيا غير حقيقية وتهربوا من التفسير والتأويل. وكما جاء فى قول الله تعالى

قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ

لم يصرح الكهنة بعجزهم التام عن عدم قدرتهم تفسير ما رآه الملك، وهذا كبر فى نفوسهم، فأعلنوا رأيهم بأن ما رآه الملك ليس إلا أحلاما شأنها شأن كل الأحلام التى لا قيمة لها ولا معنى، وكانت تلك هى إجابة الكهنة للملك. ويبدو أن الملك لم يقتنع بهذا المنطق، وكثف جهوده للعثور على من يقنعه بتفسير رؤياه هذه، وأعلن ذلك بين رعيته لعل أحدا من الناس حتى ولو كان من البسطاء أو المغمورين من رعيته يقدم له حلا فى رؤياه هذه.

ووقع هذا الخبر على مسمع من السجين الذى نجا من سجنه وعاد يعمل فى قصر فرعون، فلقد تذكر يوسف بعد غيبة طويلة وآن له أن يحدث الملك فى شأنه وفيما رآه منه أثناء سجنه، فكلمات يوسف العذبة ما زالت تعيش فى أعماق نفسه، مما جعل هذا السجين لا يتردد فى عرض هذا الأمر على الملك، فإن ثقته فى يوسف أكبر من حبه للملك وبالتالى كانت دافعه فى الحديث عن يوسف وإخبار الملك عنه وما له من مواقف روحية مؤثرة، ومدى علمه بتأويل الأحاديث وتفسير الرؤى، وبذلك صحح السجين موقفه وتذكر يوسف بعد نسيان طويل كما جاء فى قول الله تعالى

وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون

وذهب السجين السابق بأمر من الملك إلى يوسف فى السجن ليسأله عن تفسير الرؤيا الشهيرة التى رآها الملك فى منامه، ودخل السجين على يوسف، وبمجرد أن وقعت عينا يوسف عليه فطن أن الله قد فتح له بابا ليخرج من سجنه، وهذا ما يدعوه إلى التفاؤل، ويجعله يستبشر بأن دعوته إلى الله قد استجيبت، وبادره هذا السجين قائلا كما جاء فى قول الله تعالى:

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ

واستمع يوسف عليه السلام بحرص وأحس بأن خطابا إلهيا قد ملأ شغاف قلبه، وأن تأويله الصادق هو الباب الذى سيخرج منه لتصل كلماته إلى الحكام، وأن دعوة التوحيد ستذكر الملوك بقدرة الله وعظمته، وأن دعوة الإيمان قد اقتربت، وأن نور الهداية سوف يشرق على شعب مصر، فنطق بصراحة ودقة ووضوح بأن السبع بقرات يمثلن سبع سنوات، فالسبع سنوات الأولى سيزداد فيها محصول القمح كنتيجة لزيادة مياه نهر النيل، ويعقب ذلك سنوات الجفاف السبع، حيث تقل مياه النهر وتتأثر الزراعة بالجفاف.

ويريد خادم الملك أن يعود بالمعرفة إلى هؤلاء القوم لكى يخبرهم بما قاله يوسف وما عليه يوسف ونشرا لعقيدته ودعوته التى كان عليها حتى يعلم الناس جميعا الدين الحقيقى وبالتالى يعبدون الله سبحانه وتعالى على معرفة وعلى يقين ووضوح، فقال لهم يوسف كما جاء فى قول الله تعالى:

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ* ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ

فعلم هذا الذى ذهب إلى يوسف تأويل وتفسير هذه الرؤيا بأنهم يزرعون لسبع سنوات القمح المتمثل فى غذاء الناس على هذه الأرض، وأن ما يحصدون من هذه المحاصيل يقومون بتخزينها فى سنابلها كما هى دون أن تنزع الحبة عن السنبلة، وهذه حكمة فى التخزين الجيد الذى يحافظ على المحصول من التلف، وحكمة أخرى أنه حينما يستخدم القمح وتفصل الحبة عن السنبلة فإن مخلفات هذا الفصل تصلح غذاء للماشية، وبهذا يطعم الإنسان وتطعم أيضا الماشية، وتحافظون على هذا المخزون إلا قليلا منه يقتات الناس منه ويعيشون دون إسراف فى الطعام لأنه من بعد ذلك سيأتى سبع سنوات شداد ينخفض فيهن ماء نهر النيل ويشح، مما يعرض الشعب المصرى وما حوله من بلاد لمجاعة طاحنة قد تؤدى إلى الهلاك والدمار والخراب، ثم تأتى سنة من بعد السنة السابعة للشدة ستعود المياه متوفرة وينزل الغيث من السماء وتزدهر المزروعات وتخرج الفاكهة ومنها الأعناب التى تستخدم فى العصائر والخمور وغير ذلك مما اعتاد الناس عليه، أى ستعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل بعد سنوات فيها القحط وفيها الشدة.

فحكمة التأويل كانت سببا هاما لسلامة شعب بكامله، وتلك هى إشراقة الحياة الروحية بما تحمله من رؤى منامية وتأويل صادق وحكيم أثبت ضرورته فى الأزمات، كما بين أن التأويل والتفسير أهم بكثير من الرؤى المنامية، وعلى الأخص رؤيا الملك التاريخية، مع أن هذا الملك لم يكن على دين يوسف عليه السلام، وقد تجلت حكمة الله على يوسف فأنطقه بالحكمة ومنَ عليه بتأويل الأحاديث، وتلك قيمة لا تقارن بالذهب، ولا يقدرها إلا أصحاب الذوق الرفيع الذين تذوقوا حلاوة الحب والقرب من الله سبحانه وتعالى.

وكم يكون الله لطيفا حينما يفتح أبواب السجن ليوسف، وهذا إحسان من الله يعيش فى ضمير وقلب كل من أحب يوسف وعاش على نهجه، فليس ليوسف وللمؤمنين غير الله ليحفظهم بحفظه ويكلأهم بنوره وينصرهم بنصره ويوفقهم بتوفيقه.

يوسف فى طريقه إلى الحكم

ولما سمع الملك تفسير رؤياه وفطن إلى حكمة يوسف عليه السلام وما ترمى إليه هذه الحكمة من المحافظة على الأرض والناس والكائنات، أدرك بذكائه قيمة يوسف عليه السلام، فأرسل يستدعيه من السجن، ويقول الله تعالى:

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَابَالُ النِّسْوَةِ الَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ

فرجع رسول الملك إليه وأخبره بأن يوسف يتساءل ويريد أن يعرف بعضا من الأمور قبل أن يخرج من السجن، فقال له الملك وما مسألة يوسف التى يريد أن يطرحها، فقال له إنه يقول: ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن، وهنا تساءل الملك عن هذا الموضوع، ويبدو أنه لم يكن يعلم عن هذا الأمر شيئا، فأحاطوه علما بما حدث ليوسف وأسباب دخوله السجن، فأمر بإخراجه من السجن فورا بعدما تبين له الحق، وفى نفس الوقت بدأ يتقصى الحقائق، وأرسل للنساء اللاتى كن مع امرأة العزيز حينما أمرت يوسف بأن يخرج عليهن.

وتأكد الملك أن امرأة العزيز قد أبعدت يوسف عن حياتها حفاظا على كبريائها، فنفذت تهديدها بدخوله السجن لقاء خروجه عن طاعتها، واستدعى الملك النساء اللاتى حضرن هذا الموقف، كما استدعى امرأة العزيز، وسألهن سؤالا كما يقول الله سبحانه وتعالى:

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ الصَّـٰدِقِينَ* ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ.

سأل الملك ما هذا الأمر الفادح الذى وصل إلى مسامعه؟ هل راودتن يوسف عن نفسه؟ وهل كان يوسف خاطئا أو متجها إلى سوء حتى يلقى فى السجن؟ فأجابت النسوة: لم نعلم عن

يوسف سوء خلق، وإنه لمن الصالحين الطيبين. فتحدثت امرأة العزيز كى تدلى بإجابتها بشجاعة واضحة حينما قالت كما فى قول الله تعالى:

قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْئَـٰنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ، وعادت امرأة العزيز إلى رشدها وصوابها، فتسلحت بالصدق وكان ذلك دافعا لها يدعوها إلى عدم التخلى عن الأمانة، وأعلنت فى مجلس الملك، ومن حولها شهود من النساء، بأنها هى التى راودت يوسف عن نفسه، وليس كما كانت تدعى من قبل، وأن يوسف صادق فيما يقول، وليعلم يوسف أن الادعاءات الكاذبة التى بدت لم تفلح فى تغطية موقفها المشين.

فالكذب لا يستمر طويلا، وأن الأيام وحدها كفيلة بفضح من احتمى بالكذب والبهتان، وأنها لن تستمر فى ترديد الكذب وإلقاء التهم الباطلة كما كانت تفعل من قبل، وكما كانت تظن أن لجوءها إلى الحيل الكاذبة يحميها من ألسنة الناس وتطلعاتهم، أو ينجيها مما وقعت فيه، فالدفاع عن النفس لا يتحقق إلا بمحاسبة النفس، والاعتراف بالخطأ والعمل على تصحيحه من خلال التوبة النصوح، وإن لم تبادر بالإفصاح عن خطئها فإنها تخون نفسها وتخون الأمانة وتخون براءة يوسف عليه السلام، ولذا لم تجد لها بدا للنجاة إلا أن تتمسك بالصدق وتعلنه بلا تردد، وذلك أزكى لها وأطهر لتكفر عن خطاياها " وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ."

ويبدو أن امرأة العزيز قد أفاضت بحديث غزير عن الدوافع التى تدعو النفس إلى ارتكاب الخطايا من أجل تحقيق المآرب والشهوات والمنافع الخاصة، وأشارت فى حديثها الى أن إغراءات الحياة وشهواتها سبب قوى لإيقاع الإنسان تحت وطأة المعاصى والآثام، وأن الإنسان ليس معصوما من الخطأ، وأن ظروف الحياة وتطلعاتها تحدث تأثيرا بالغا على سلوك الإنسان ليسلك طريق الانحراف والظلم.

وهكذا أردفت قائلة إنَّ كل إنسان قد يقع فى الخطيئة من خلال الظروف النفسية والتهيئات التى تعيش فى داخل النفس الإنسانية، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يغلق باب رحمته ومغفرته ورضوانه، وبهذا المنطق وضح تماما أن امرأة العزيز قد استوعبت الدرس، ورجعت عما كانت

فيه، فقد ظلمت يوسف مرة حينما أرادته أن يخطئ، ومرة ثانية حينما أدخلته السجن، ولكنها فكرت كثيرا فيما أساءت به ليوسف عليه السلام، وبدأت تتدارك هذا حينما استدعاها الملك وأعلنت صدق يوسف وقناعتها بدينه، وخرجت بذلك عن دين الملك ومعتقداتها السابقة فدخلت فى رحمة الله سبحانه وتعالى، ويقول تعالى:

وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيَ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ

لقد كانت امرأة العزيز فى حال النفس الأمارة بالسوء، وليس ذلك حال كل نفس إنسانية، فللنفس أحوال متغيرة تتقلب على الإنسان، كالنفس اللوامة التى تلوم صاحبها حينما يخطئ، وعند محاسبة النفس حينما تأمر بالسوء أو تخطئ يتبدل حال الإنسان من حال إلى حال حتى يصل إلى حال النفس المطمئنة التى اطمأنت بسلامة القلب وطهارته، وبرضاء الله عنها، بما أسبغه من نعم ظاهرة وباطنة أظهرها استجابة الدعاء، كما جاء فى قول الله تعالى " يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِيَ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَٰدِي وَادْخُلِي جَنَّتِي" (الفجر:٢٧-٣٠).

ولقد اهتمت امرأة العزيز بإصلاح نفسها وتوغلت فى التفكير فيما ذهبت إليه من سوء، فتحدثت بشجاعة عن إمكان وقوع النفس فى الخطايا، وفى نفس الوقت إمكانية محاسبة النفس ولومها من أجل تصحيح الأخطاء، وذلك ما يدعو إلى تحقيق الأمل فى طاعة الله ورضوانه.فاعتراف النفس بالخطايا والآثام يؤدى إلى التوبة النصوح، والتوبة النصوح تؤدى إلى رحمة الله، ولا يتأتى ذلك كله إلا من خلال لحظات الصدق التى تدفع الإنسان نحو التغيير، فتتبدل سيئاته حسنات، وتلك هى رحمة الله الواسعة.

ولقد تأثر الملك بما سمعه عن يوسف وخاصة من امرأة العزيز ونساء المدينة، فأيقن أن يوسف يتمتع بالأخلاق الطيبة والصفات الحميدة، فقرر أن يستخلصه لنفسه، وأمر بسرعة استدعائه، ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقول الله تعالى:

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ

وهكذا أراد الله أن يمكن ليوسف فى الأرض ويجعله شخصية مهابة يحترمها الملك ويوقرها الجند ويقبل عليها الناس بالاحترام والتقدير، ولما دخل يوسف على الملك رحب به وهتف من أعماقه قائلا له كما جاء فى قول الله تعالى " قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ "

وهكذا كانت مشيئة الله أن يستجيب لدعاء يوسف عليه السلام ويضعه فى مكانة عالية ليكون وزيرا للملك ومستشارا له يؤدى دوره المنتظر فى سنوات القحط، كذلك يؤدى رسالته الدينية وهو على مستوى الحكام الذين يستطيعون أن يؤثروا فى الناس، وهذا أسلوب من أساليب الدعوة لله، أن يسخر الداعى ماله وثروته وجاهه وسلطانه وتواضعه وبساطته من أجل الله سبحانه وتعالى.

ويتفوق يوسف على كثير من الدعاة بأن وهبه الله أسرار التمكين، فقد مكنه فى الأرض من خلال حكمته وشفافيته وسرعة نفاذه إلى القلوب بما أفاء الله عليه من جاذبية روحية تدعو الناس إلى ضرورة حبه وحسن معاملته، وقد وضح تمكين الله ليوسف حينما حفظه من القتل على يد إخوته فاستبدلوا القتل بإلقائه فى البئر، ومكنه بأن جعله يصل إلى قصر العزيز ليعيش حياة كريمة، ومكنه أيضا من أنه لم يسئ إلى العزيز ولا إلى امرأة العزيز التى كانت تهتم بتربيته ونشأته وترعاه، ومكنه الله من الخروج من السجن حينما ألقى فى روع الملك رؤياه الشهيرة، وهكذا تمكن يوسف من الأرض ولم يعد للأرض سلطان عليه، فلا يتأثر بمالها أ و جاهها أو سلطانها، فكانت له مكانة عند الله بما أودعه فيه من علم وإيمان، ومكانة فى الأرض من خلال أمانته وعدله، وظهر ذلك جليا حينما أصبح أمينا على الأرض ومخازنها، وما تمتع به من أوامر نافذة مدعمة بقوة وسلطان وظيفته الجديدة.

وكل هذه الأمور أصبحت بين يدى يوسف عليه السلام بينما فى السجن لم يكن له القوة وليس له السلطة أو الأمر، وحينما صبر وتحمل الاختبار تبدل الأمر وخرج من السجن وأصبح صاحب الكلمة والقوة وجلس على كراسى الحكم وأصبح من وزراء مصر الذين يؤثرون على هذا البلد الأمين الذى حفظه الله من المجاعة والمهانة والقحط والموت من خلال العلم المنزل على قلب يوسف وحكمته وتأويله للرؤيا التى رآها الملك.

وبذلك أدت الحياة الروحية دورها في حفظ مصر من هلاك محقق ومعاناة لم يسبق لها مثيل، وذلك على يد نبى، وأصبح يوسف بما قدمه لمصر من عطاء ومن حفظ متمكنا من حكمه بعدله ومباشرته توزيع الحبوب والطعام على شعب مصر دون أن يقصر في عدل أو يتكاسل في حكم، فدائما عينه لا تغفل عن رعاية الناس، كما لا يغفل قلبه عن عبادة الله، فساد الرخاء في مصر من خلال العلم بالله وما تبعه من عدل وأمانة قادت شعب مصر نحو الطريق الآمن والحياة الطيبة الرغد.

وهكذا كان لمصر السبق فى احتضان أحد أنبياء بنى إسرائيل لينتمى إلى أرضها وشعبها وترابها وهوائها، والفارق واضح بين ما أداه نبى من أنبياء بنى إسرائيل وما يدعيه بعض منهم فى العصر الحديث من أنهم من سلالة بنى إسرائيل، بينما هم يزاولون اغتصاب الحقوق ويقتلون الأبرياء ويفسدون فى الأرض، وذلك على نقيض رسالة بيت يعقوب عليه السلام أبى أنبياء بنى إسرائيل.

يقدم لنا القرآن الكريم صورة حية لمن ينبغى أن يكون من بنى اسرائيل ، وهاهو يوسف عليه السلام يخرج من سجنه فى حفاوة بالغة أعدها له الله سبحانه وتعالى، فيلتقى بالملك ورجال القصر من الوزراء والقواد وغيرهم، وينطلق الملك هاتفا باستخلاص يوسف لنفسه، فأصبح يوسف عليه السلام من أقرب المقربين للملك، وأصبح أمينا للحكم، وكان ذلك تقديرا من الملك ليوسف عليه السلام ودليلا على كياسة الملك وحسن سياسته وتقديره للأمور. فمن حق الملك أن يهتف من أعماقه ليقول ليوسف كما جاء فى القرآن الكريم: إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ.

وتحمس يوسف فى هذا الاجتماع العظيم قائلا: اجعلنى أيها الملك أمينا على خزائنك وأموال مملكتك، فإنى حفيظ على أسرارك، عليم بتسيير أمور مملكتك.

وعاشت تلك الكلمات المتبادلة فى خلد الأرض والسماء، تعبيرا عن نشوة الأرض وابتهاجها بما حظى به يوسف من منزلة رفيعة تعيد لها بسمتها، وفرحة السماء بما أصابه من رحمة الله وتوفيقه باستجابته للدعاء ومنحه ليوسف الدرجات الروحية الرفيعة. وتلك هى المعانى التى

أوحى بها الله إلى قلب رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وفى ذلـك يحتضن الرسول يوسف فى قلبه وليكون ذكرا للعالمين، وكما جاء فى قوله تعالى

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنَ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ

وعند هذه المنزلة التى وصل إليها يوسف، تيقن من تمكين الله لـه منـذ حداثـة عهـده مـع اللـه، حيث منحه الله أسرار تمكينه، وجاء ذلك فـى قولـه تعـالى "وَكَذَلِـكَ مَكَّنَّـا لِيُوسُـفَ فِـى الأَرْضِ.

وأكدت الأحداث استجابة الدعاء، وأن للمظلوم دعـوة تخـرق السـماء، فتحـول السـجين إلى أمير حاكم، وذلك كلـه مـن تدبـير اللـه سـبحانه وتعـالى وترتيبـه، إذ أوحـى إلى الملـك برؤيـا، وأوحى إلى يوسف بتأويلها وتفسيرها، وبذلك خرج يوسف من السجن، واستجاب الله له.

فرحابة العطاء الإلهى حققت ليوسف كل ما كان يدعو إليـه فـى الأرض ومـا شـاءه مـن أمـور ترفع من شأن رسالته من خلال دوره المرموق فى موقعه الجديد ومكانتـه عنـد الملـك والرعيـة، وبين القرآن الكريم ذلك فى قول الله تعالى " وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ.

وحينما تمكن يوسف الأرض وأصبح فى مكانة اجتماعية مرموقة خفق قلبه وتعجب من أمر ربه وتحدث فيما بينه وبين نفسه، ويطلع الله على ما يدور فى نفس يوسـف وقلبـه فيخاطبـه بقولـه تعالى " نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ".

ويتطلع يوسف إلى جزاء الله له فى الدنيا؟ فهل له الجزاء الأوفى فى الآخرة، ويجيبـه اللـه حـال تساؤله، وكما جاء فى القرآن الكريم " وَلأَجْـرُ الآخِـرَةِ خَـيْرٌ لِّلَّذِيـنَ ءَامَنُـواْ وَكَـانُواْ يَتَّقُونَ."

هذه الكلمات كانت تداعب قلب يوسف وتشعره بتعاطف الله ومحبته إياه، فيشعر يوسف فـى ذلك أنه لم يفارق أباه أو يبتعد عن أمه أو يفتقد إخوته وأهله، لأنه وجد الله فى قلبه، بل كان يجده دائما فى كل ضائقة أو شدة، فكلما حزبه أمر أو ألحت عليه رغبـة وجـد أن اللـه غـالب

على أمره، وأن يوسف عليه السلام ليس له من الأمر شيء، والأمر جميعا لله، وكانت تلك هى علاقته الوطيدة بالله فى كل لحظة من لحظات حياته، ومهما فاجأته المواقف أو داهمته الشدائد وجد نفسه متمتعا بحفظ الله ورعايته، وليخرج يوسف من كل موقف أو شدة أكثر إيمانا وأشد قوة، وتلك هى مشاعر الحب الإلهية فى قلب يوسف عليه السلام.

وندع يوسف فى حبه وذكره وتسبيحه لله سبحانه وتعالى وبكاء عينيه من خشية الله وانشراح صدره لكلمات الله ليقيم الليل ويسجد ويصلى لله تعبيرا عن الشكر وتأكيدا للصلة المستمرة التى بينه وبين الله، فليفرح يوسف ولا يحزن على ما أصابه، فقد فاز فوزا عظيما بإيمانه القوى وإسلام قلبه لله سبحانه وتعالى.

وحينما نتطلع إلى دور سيدنا يوسف عليه السلام فى الحياة نجد أن دوره كان عظيما فى مواجهة الأزمة الطاحنة التى كادت تستهدف مصر وتقضى على شعبها، لولا رجاحة عقله وحكمة تأويله للرؤيا التى رآها ملك مصر آنذاك، فسيدنا يوسف رأى بنظره الثاقب وتأويله الصائب ورؤيته الحكيمة أن مصر ستمر بمجاعة تقضى على من فيها بسبب نقص المياه فى السنوات القادمة، مما يؤثر على زراعة الأرض وما يترتب على ذلك من أخطار تهدد حياة الإنسان والحيوان، ولقد أدت نظرته الصائبة إلى ارتباط الحكم بالحكمة.

وأصبح يوسف من رجال الحكومة فى مصر، وقد استخلصه الملك وانتقاه واختاره لحكمته وفطنته ورجاحة عقله، وكان هذا الاختيار نابعا من إيمان الملك بتحمله مسئوليات وتبعات حكمه، فاختار حكمة يوسف، وتلك قدرة لا يستهان بها فى إدارة يوسف للحكم من أجل الرخاء والخروج من الأزمات والشدائد، والحكم لا يقوم على الحصافة السياسية وحدها، بل يقوم على الحب الحقيقى والوطنية الصادقة.

والأسمى من ذلك ما منّ الله به على يوسف من حكمة بالغة وإلهامات خفية ورعاية ربانية، ومثل هذه الحكمة تندر أو تستحيل فى المجتمعات الإنسانية الحديثة، حيث تتصارع المصالح وتختلف الأهواء وتمرض النفوس بالشهوات والأطماع ويتأرجح فيها الحكم من طبقة إلى أخرى، حينما تتشكل به الحكومات، حتى ولو كان ذلك على حساب القيم والمثل.

وقد وقع اختيار الملك على يوسف لإعطاء كل ذى حق حقه، فالأزمات لا تفرق بين الفقراء والأغنياء، والمجاعة تهدد الجميع، وتلك هى مسئوليات يوسف عليه السلام تجاه شعب مصر، وقد حرص الملك على مثل ذلك المستوى الرفيع لإدارة البلاد، كما جاء فى القرآن الكريم فى قول الله تعالى " وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ

ويوسف عليه السلام جعله الله من الممكنين فى الأرض كما أنه صادق وأمين، وذلك يدلك على حسن اختيار الملك وشجاعته أيضا على مخالفة الكهنة رغم ما يتمتعون به من زعامة وتأثير روحى على الشعب المصرى الذى يميل إلى التدين بطبيعته وفطرته، فكانت رؤية الملك واضحة فى إدارة شئون مملكته وذلك من خلال تأهيله وتربيته التى قادته إلى التمسك بالحكمة والتزامه بالحق، وتلك من أصول الحكم وفنونه وآدابه، وتبوأ يوسف عليه السلام هذه المكانة ليكون على قمة من قمم الحكم لأداء مسئولياته فى احتواء الأزمة بتخزين القمح وتوزيعه من خلال العدالة الاجتماعية، مما يؤكد الدور الهام للدولة إزاء الأزمات والنكبات والمشكلات الطارئة أو الدائمة، وفى ذلك يضرب الله المثل بيوسف عليه السلام لحث الناس على ضرورة التمسك بالفضيلة والصدق والأخلاق الكريمة.

ولما قبل سيدنا يوسف هذا التكليف وتحمل المسئولية تعهد للملك بذلك كما جاء فى قول الله تعالى " قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنَ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ

فلم يتطلع يوسف عليه السلام إلى الجاه والمنصب، وإنما أراد أن يتحمل المسئولية تجاه بنى وطنه فى زمن ردىء يحتاج إلى هذه النوعية من الرجال المؤمنين بالله والعاملين من أجل الحق والعدل.

يوسف فى الحكم

ويتولى يوسف عليه السلام إدارة ما أسند إليه، والهدف منه هو مجابهة الأزمة القادمة ومحاصرة القحط الذى ينشأ عن عدم إمكانية زراعة القمح بسبب انخفاض مياه نهر النيل وشح الفيضان، فثقة يوسف فى تأويل الأحاديث وتفسير الرؤى تدعوه إلى وضوح الرؤية والتخطيط

للتعامل مع المشكلة قبل وقوعها، ويعتمد هذا كله على ضرورة النظام القائم على جمع المحصول وتنظيم تخزينه والمحافظة عليه من التلف، ويساعده على ذلك وجهه المريح ودماثة خلقه التى تجذب الناس نحو التعاون معه وطاعته، فلن يكون أسلوب يوسف فى جبايته للقمح متعسفا، فالطبيعة الدينية ترفض الإكراه.

لقد هيأ الله سبحانه وتعالى ليوسف مكانا يستطيع من خلاله أن يترجم عقيدته إلى عمل مثمر وناجح، فكلما عظمت الأزمة كلما ازدادت الهمة، واتسعت دائرة الحكمة، فسيدنا يوسف عليه السلام لم تكن نظراته محدودة أو محصورة فى طقوس أو نصوص دينية، ولكنه كان ينظر إلى الحياة النظرة الدينية الصحيحة، تلك التى لا تتخلى عن الاهتمام بأمور الناس ومشاكلهم.

وقد دفعه هذا إلى تحمل مسئولية تخزين القمح وتوزيعه بالعدل، وذلك هو التأويل الصائب للرؤيا المنامية التى كان قد رآها الملك من قبل، ومن هنا ضمن سيدنا يوسف عليه السلام الغذاء للإنسان والتخزين الجيد وغذاء الحيوان أيضا من محتويات سنابل القمح، التى تكون علفا أو غذاء لحيوانات الحقل التى تشارك الإنسان فى عمله اليومى.

فهذه وجهة نظر بعيدة من يوسف عليه السلام، وإلهام الله له كى يعلو ويسمو فى المجتمع المصرى، ويلمع اسمه، لأنه وحده هو الذى أشار بأعمال التخزين وحفظ القمح وجمع المحصول، وتوزيعه بالعدل على المستحقين من الناس، فكلف ذلك سيدنا يوسف عليه السلام سبع سنوات يشرف على حصاد القمح وتخزينه فى سنابله، وسبع سنوات أخرى يشرف فيها على توزيعه حينما تعذرت الزراعة بسبب الجفاف والقحط.

وحينما تربع يوسف عليه السلام على عرشه أتاه الناس من كل مكان فى مصر وفى غير مصر، حيث كان يعقوب وأبناؤه يعيشون فى الشام، وقد جاء إخوة يوسف ليأخذوا نصيبهم من القمح، وهذا يشير إلى أن خيرات مصر كانت تصل إلى أبعد الحدود فى زمن لم تكن فيه حدود فاصلة تحدد إقامة الإنسان فى أرض معينة، فالأرض جميعها حق مشاع لكل الناس، فهى أرض الله قبل كل شىء وبعد كل شىء، فكل إنسان كان يستطيع أن يرحل إلى أى مكان ودون تعرض

وقد أشارت الآيات القرآنية إلى دور مصر الرائد منذ فجر التاريخ، وكيف أنها اجتذبت كل من تهفو نفسه لحياة رغد، ويكفى أنها اجتذبت يوسف عليه السلام ليكون مصريا، وأن كل

الشعوب بما فيهم بنو إسرائيل كانوا يودون الإقامة الدائمة على أرض مصر الخضراء، حيث كان الإنسان يتمتع بحرية الإقامة والتنقل، وليس شرطا فى الحاكم أن يكون من أبوين مصريين، وتلك هى الحريات التى افتقدها الإنسان فى العصر الحديث.

وقد أطل يوسف بوجهه على مصر ولا يزال وجهه مشرقا كالقمر حتى عصرنا هذا، فالمسلمون يسمون أبناءهم بيوسف، وكذلك المسيحيون واليهود، فيوسف مثال للوحدة الوطنية، والتقت كل المذاهب وكل أصحاب العقول المختلفة لتجتمع على يوسف عليه السلام، فأحبه السجناء وأحبه الملوك، فيوسف مع الضعفاء ويوسف مع الأقوياء، وأصبح لسيدنا يوسف عليه السلام اسم مشهور وذائع الصيت، ومعروف.

وقد ألقيت أضواء المعرفة عليه من خلال الحوادث الكثيرة التى تعرض لها، فمرة يلقى فى البئر، ومرة أخرى يكرم فى بيت العزيز، ومرة ثالثة تحدث مشكلة بين سيدنا يوسف وبين امرأة العزيز، ومرة رابعة نراه فى السجن، ومرة خامسة نجد أن سيدنا يوسف يقوم بعمل سياسى ويتحمل مسئولية التوزيع والاقتصاد والتخزين، ويضرب المثل بأن النبوة أو الولاية لا تمنع المشاركة فى حياة الناس، شأنها شأن العمل السياسى فى أيامنا هذه، حيث يتبنى المصلحون الدفاع عن المساكين والضعفاء وأصحاب الحقوق، بينما الاعتكاف والابتعاد عن المشاركة إن لم يكن لمعارضة الحاكم الظالم فإنه اتجاه خاطئ وتقليد أعمى فقد صوابه، فلا يعقل أن تقام حرب على بلد ولا يعبأ بها المعتكفون، ولا يتصور أن تداهم المحن والشدائد أمة والناس عنها ساهون.

فهذا من الأمور التى لا يعرفها الدين الذى جعله الله سبحانه وتعالى لخدمة الإنسان على هذه الأرض، ولذلك فالكثير من الناس يعتقدون أن المساهمة والمشاركة لرجل دين فى عمل سياسى نوع من الخطأ، كما ولو كان الدين بريئا من العمل الاجتماعى أو السياسى، فهؤلاء جميعا يخطئهم سيدنا يوسف عليه السلام لتحمسه الشديد الواضح، لأن يتحمل المسئولية كما قال لملك مصر : اجْعَلْنِى عَلَى خَزَآئِنَ الأَرْض إنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ

فبكل ثقة واقتدار تحدث يوسف وتحمل مسئولية العمل فى أدق وأخطر مرحلة فى حياة الشعب المصرى وهى مرحلة المجاعة الشديدة لتوقف النهر عن فيضانه لمدة سبع سنوات، فمن يستطيع أن يتحمل مثل هذه المسئولية الجسيمة التى تحافظ على الإنسان وعلى الحيوان؟

وجاء إخوة يوسف

فهذا هو يوسف عليه السلام وقد جلس يوزع القمح، ويقوم بمهامه ويعمل بنفسه ولا يترك أمره لغيره ليبقى على كرسيه فى القصر، فلم يستهوه الترف والتنعم، ولكنه عايش المشكلة بشكل ملحوظ، حيث كان يقوم بتوزيع القمح بنفسه على كل شعوب هذه الأرض من مصر حتى فلسطين، وبينما كان يؤدى واجبه تجاه مجتمعه، إذا به يجد إخوته يدخلون عليه طلبا للقمح فعرفهم.وتمر اللحظات القليلة فى خيال سيدنا يوسف عليه السلام، ويتذكر نفسه فى صغره حينما كان يلعب ويرتع مع إخوته هؤلاء، وكيف أضمروا له الشر والحقد وتآمروا عليه ليقتلوه، وانتهوا بإلقائه فى البئر ليحفظه الله سبحانه وتعالى ويكرمه ويضعه فى أكرم بيت فى مصر وهو بيت العزيز الحاكم، وتذكرهم يوسف حينما خدعوا أباهم يعقوب عليه السلام الذى أخذ يبكى حتى ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم، ولا ينسى لهم يوسف أنهم كانوا السبب فى إبعاده عن أبيه، فما ذنب الأب الذى كان يأمل أن يخلفه ابن صالح له.

ويسترجع يوسف ذكريات الأيام، حيث برزت صورة أبيه يعقوب وهو قائم يصلى ويدعو الله أن يبقى بيت يعقوب مفتوحا حتى يخرج منه أنبياء بنى إسرائيل. وهكذا راح يوسف يفكر فى الأيام والأحداث والأقدار، فيوسف عليه السلام هو النبى الذى اختاره الله سبحانه وتعالى استمرارية لبيت يعقوب.

ولننظر إلى سيدنا يوسف عليه السلام حينما أبصر بعينيه إخوته هؤلاء، وحينما اقتربوا منه وحل دورهم ليدخلوا عليه، تذكر الماضى البعيد وبرزت أمام عينيه صور لأحداث لا تنسى، ولكن الإيمان بقضاء الله وقدره يطفئ شهوة الغضب ويقضى على حب الانتقام، ومن ثم كان الاطمئنان يملأ نفس يوسف الزاهدة والمتطلعة إلى نور الله، فقلبه المتصل بالله جعل له فطنة روحية مكنته من التعرف على إخوته، ولكنهم لم يتعرفوا عليه، حيث قضت حياتهم الدنيوية على كل فطنة روحية، فقد اعتقدوا أن يوسف قد مات أو اختفى الى الأبد.

وهكذا لم يدركوا أن أخاهم هذا هو الذى يجلس فوق كرسى الحاكم ويقوم بهذه المهام فى ظل أزمة طاحنة شديدة. ويعبر القرآن الكريم عن ذلك كما جاء فى قول الله تعالى:

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ

يوسف يشرع في درس لإخوته

رغم ما كان يعانيه يوسف من مرارة الحرمان من الأهل، خاصة أبيه يعقوب عليه السلام، إلا أنه أحسن إلى إخوته بمجرد لقائه لهم، فحلمه سبق غضبه، وتلك هى أخلاق النبوة تظهر وتتضح عند التعامل، فكانت معاملة يوسف لإخوته هؤلاء فائقة، وذلك حينما أعانهم بما يحتاجون من قمح وتلطف معهم فى الحديث طالبا منهم أن يأتوه بأخيهم الصغير، فلقد سمح يوسف لهم بعدم إحضار أبيهم لاستلام القمح فلماذا لم يصحبوا أخاهم الصغير طالما أنه قادر على السفر والتنقل. فلقد ذكروا له عدد أفراد أسرتهم.

ويبدو أن ليوسف رغبة فى التعرف على أسباب احتجاز أصغرهم، فلعل أباهم قد احتجزه حتى لا يتكرر ما حدث لابنه يوسف، ولهذا أمرهم يوسف عليه السلام بضرورة إحضار أخيهم الصغير هذا، لاسيما وأنهم فى حاجة ملحة إلى القمح، وأن يوسف عليه السلام يوفى الكيل، كما أنه يحسن الوفادة ويكرم الضيف.

ويعلم يوسف مقدما أن استدعاءه لأخيه ليس بالأمر السهل الذى يوافق عليه يعقوب أبوهم، حيث إن ذلك قد يذكره بما حدث لابنه يوسف من قبل، كما أن يوسف أراد أن يعيد إلى ذاكرتهم موقفهم القديم حينما حاولوا استدراج أبيهم حتى يسمح لهم باصطحاب يوسف، ومن هنا يبدأ الدرس فيما يختص بتأنيب الضمير، بل إن كذبهم السابق على أبيهم لن يشفع لهم فى هذه المرة، وخاصة أن زمنهم هذا يمر بأزمة الجوع، ولذلك توعدهم يوسف بأنه فى حالة عدم إحضارهم لأخيهم سيمنع عنهم القمح، وقد ورد ذلك كله فى القرآن الكريم فى قول الله تعالى:

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّىَ أُوفِى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ* فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلاَ تَقْرَبُونِ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ

العودة إلى مراودة يعقوب:

وهنا اضطر إخوة يوسف للإشارة إلى موقف أبيهم الـذى سيمانع فى إرسال أخيهم الصغير معهم، وهذا يعنى أن فى آفاق تعاملهم مشكلة تحول بينهم وبين أبيهم، وأن الأمر يحتاج إلى حسن السياسة، ولابد من مراودة أبيهم، وقد جاء ذلك صريحا فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ

وتأكد يوسف أنهم سوف يبذلون قصارى جهدهم لمراودة أبيهم لإمكانية موافقته على اصطحاب أخيهم الصغير هذا، فإنهم دائما يطمعون فى سماحة يعقوب أبيهم وقلبه الأبيض الأكثر بياضا من عينيه اللتين كانتا قد ابيضتا من الحزن يوما، ووثق فى قولهم ودعا فتيانه الذين يقومون بمساعدته أن يضعوا فى رحالهم بضاعتهم التى جاءوا بها من بلدهم لمقايضتها بالقمح، وهذ إمعان فى تكريمه لهم، بل ربما يكون هذا الكرم إشارة موجهة لأبيهم تدعوه إلى الاقتناع بصدق أقوالهم، كما تفتح قلبه وفكره لرؤية جديدة يتيسر من خلالها إمكانية موافقته على إرسال ابنه الصغير مع إخوته إلى مصر حسب رغبة يوسف كوزير للملك، ويصور القرآن الكريم هذا الموقف بقول الله تعالى

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

وقد لا يكون مثل هذا الأمر ميسرا، فقد تحدث مناقشة بين سيدنا يعقوب وبين أبنائه فيذكرهم بما حدث مع يوسف عليه السلام، وأن هذا سوف يذكرهم أيضا بشناعة فعلتهم مع أخيهم يوسف، وفى ذلك محاسبة للنفس وصولا إلى طهارة القلب ودعوة للاستغفار من الذنب، وتلك أولى خطوات التوبة للعودة والرجوع إلى الله. وعلى كل فلن نسابق الأحداث، فالمرجع الأول والأخير هو حكمة يعقوب ومدى ما سيتلقاه من إلهام الله له.

ودخل إخوة يوسف على أبيهم وتشابه ذلك الموقف بموقفهم مع يوسف من قبل، وقد تثير تلك الذكريات الأسى والحزن والندم لديهم على ما فعلوه بأخيهم.هذا ما سيدفع أباهم للموافقة على اصطحابهم لأخيهم الصغير حيث يقول الله تعالى:

فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ

فقالوا لأبيهم لن نستطيع أن نحصل على القمح مرة ثانية، فشرط الحصول على القمح هو أن ترسل معنا أخانا، وهذه رغبة العزيز، ويجب أن تتأكد من أننا سنحافظ عليه حفظا شديدا، فلا تخش ولا تخف، ولكن سيدنا يعقوب عليه السلام سبق أن مر بأزمة شديدة من قبل، حينما تعهدوا له بالمحافظة على يوسف، ولكنهم لم يوفوا بعهدهم، واليوم جاءوا يطلبون أخا آخر، فهل سيوافق سيدنا يعقوب على مطلبهم هذا بعدما حزن حزنا شديدا على يوسف عليه السلام، ويقول الله تعالى:

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ

فتعجب سيدنا يعقوب عليه السلام، حيث لازال الجرح فى قلبه لفقد يوسف، فلم تندمل الجراح بعد، ولم ينس يوسف لحظة واحدة، بل لا زال يراود خياله وفكره، ويعيش عاطفته، فكان حديثه لهم أنه كيف يستعيد الثقة بهم مرة ثانية، وقد وثق فيهم من قبل، لكنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى هو خير الحافظين، والحفظ والصون من الله، وليس من أحد سوى الله، وأن الله سبحانه وتعالى مهما حدث من أمر هو أرحم الراحمين، فالمصيبة فادحة والأمر كبير وعظيم، ولكن رحمة الله وسعت كل شيء، فخفف الله عنه وأنزل عليه السكينة والصبر وأعطاه الأمل، وهكذا كان قول سيدنا يعقوب لأبنائه.

وبينما هم يتحدثون إلى أبيهم إذا بهم يفتحون زكائب القمح فيجدون بداخلها ما كانوا قد أخذوه معهم لاستبداله بالقمح قد أعيد إليهم مرة ثانية، فصاحوا وتعجبوا من ذلك، وقالوا

لأبيهم: لقد ردت إلينا بضاعتنا وأعطانا العزيز القمح دون أن يأخذ المقابل، دليلا على محبته وتقديره لنا، فلا بد وأن نستجيب لمطلبه حتى نمد أهلنا بالحبوب التى نأخذها من مصر، ولا نقطع هذه الصلة، بل وذلك الكسب الكبير الذى بيننا وبين العزيز، ونعاهدك على أن نحفظ أخانا ونزداد كيل بعير، وأن عزيز مصر سوف يفيض علينا بكرمه، ويعطينا الكثير والكثير من القمح، وهذا أمر سهل وميسر بالنسبة لعزيز مصر، وكذلك بالنسبة لنا، ويصور القرآن ذلك الجدل الذى جرى بين سيدنا يعقوب وبين أبنائه فى قول الله تعالى:

وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ

وبدأ يعقوب عليه السلام يستجيب ويوافق على إرسال أخيهم معهم بعدما سمع ورأى من إكرام عزيز مصر لأبنائه، وأن بضاعتهم قد ردت إليهم، وهذا ما فيه الصدق الكافى حتى يأنس سيدنا يعقوب لأبنائه ويترك لهم فلذة كبده ليصطحبوه إلى عزيز مصر، ولكنه أراد أن يأخذ عليهم موثقا وعهدا لكى يحكم الله بينهم

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ أَتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

طلب منهم أن يتعهدوا له بإرجاع أخيهم دون أن يصاب بأذى، كما يجب عليهم أن يرعوه ولا يهملوه أثناء رحلتهم هذه حتى لا يتيه أو يفتقد، فأخذ عليهم موثقا وأشهد الله بقوله:

قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

وهكذا توكل على الله سبحانه وتعالى وأعطاهم ابنه، والله يرعاه ويحفظه ويحفظهم من كل سوء، وزيادة فى الحرص وسعة الأفق نصح يعقوب أبناءه نصيحة حكيمة حيث قال لهم فى قول الله تعالى:

وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ

سيدنا يعقوب عليه السلام يعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الحافظ وهو أرحم الراحمين، ومع ذلك فلا بد من اتخاذ الأسباب والحيطة والحذر، فنصحهم حينما يدخلون من أبواب المدينة لا يدخلون جميعا من باب واحد، فربما يحيط بهم سوء أو تلفق لهم تهمة أو يحدث لهم حادث فيفقدهم جميعا. فأمرهم أن يتفرقوا عند الدخول إلى المدينة حتى إذا حدث أمر أو حدث فإنه قد يقع على أحدهم أو بعضهم ولا يقع عليهم جميعا، وأنه مهما نصحهم ووعاهم فإن أمر الله نافذ، ولا يستطيع أن يحميهم من قدر أراده الله سبحانه وتعالى لهم.

وهكذا أوضح سيدنا يعقوب كيفية السلوك المثالى على هذه الأرض، إن الانسان حينما يريد أن يقوم بعمل أو يتجه اتجاها أو يعبر طريقا مثلا، فعليه دائما أن يحترس وأن يفكر، ومع ذلك مهما احترس الإنسان ومهما فكر فإن كان عليه قدر من أقدار الله فإنه سيصاب بالرغم من الحرص، فان الحرص لا يمنع القدر، ومع ذلك فعلى الإنسان أن يصنع السبب، فإذا ما مرض تداوى، وإذا ما أراد عملا فلا بد وأن يطرق الأبواب، وإن كان محاربا فليتسلح ثم بعد ذلك يتوكل على الله، بمعنى أن التوكل نقيض التردد أو إطالة النظر إلى الخلف.

وعلى المؤمن أن يحسم أمره بما وهبه الله من نعمة العقل والتفكير وضرورة الأخذ بأسلوب الشورى والاستفادة من النصائح والتجارب، وهذا ما يعنيه التوكل على الله فى عمومه، أما خصوصيته فهو توكل من نوع خاص يسترشد فيه المؤمن بالإشارات الإلهية والرؤى والإلهامات القلبية والوحى الإلهى.

وهذا توكل الخاصة للرسل والأنبياء وأولياء الله الصالحين، وهو توكل يضاف إلى التوكل فى عمومه امتثالا لقول الله تعالى " فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ". فأى توكل سيمضى به يعقوب؟ هذا يتوقف على إيحاء الله له وخصه بالرؤى والمشاهدات والهواتف والإشارات، ومع ذلك سننظر إلى يعقوب من خلال أحواله الإنسانية.

لقد مر سيدنا يعقوب عليه السلام بتجارب كثيرة فى حياته، قد تكون مؤلمة أحيانا، وأحيانا أخرى تكون من التجارب التى تشيع السرور فى نفسه، فهو شيخ كبير وله حنكة الزمن، وبعد النظر، وحكمة التصرف. وهذا ما يدعونا لنتأمل يعقوب عليه السلام فى مواقفه المتعددة والمتتالية، حينما وافق لأبنائه بأن يأخذوا أخاهم الصغير إلى حيث العزيز يوسف عليه السلام، نظر بحكمة فكره طالبا منهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، فهذا يعنى أن يعقوب عليه السلام ما زال يمر بمراحل الخوف والقلق والحزن على فقد ابنه يوسف من قبل، ويتعامل مع مواقف الأيام بحرص شديد، وقال لأبنائه: لا تدخلوا من باب واحد بل ادخلوا من أبواب متفرقة، خشية أن يقعوا جميعا فى قبضة حاكم فيدخلهم السجن، فأراد أن يخفف من وقع الحادثة.

فإن دخلوا من أبواب متفرقة فقد يتهم أحدهم بجريمة ما فلا يساق الجميع بنفس التهمة، فمن الأجدى فى نظر يعقوب أن يدخلوا من أبواب متفرقة، وقد يزعم البعض أن يعقوب كان يخشى عليهم من الحسد، مع أن الحسد هو تمنى زوال النعمة. فالدخول من أبواب متفرقة حكمة رآها يعقوب حتى لا يفقد أبناءه جميعا، ففقد الجزء أهون عليه من فقدهم جميعا، وهذا من دروس وتجارب الحياة.

وكما اصطفى الله الرسل والأنبياء فإنه يؤكد بشريتهم حتى لا يعبدوا على الأرض أو يؤلههم الناس، فالناس قديما عبدوا الملوك والحكام، كما ذهب بعضهم إلى تأليه أنبيائهم ورسلهم، وهذا خطأ فى جوهر العبادة. فيعقوب عليه السلام لا يزال يعيش إنسانيته التى تعتريها الهواجس والظنون والشكوك حتى إذا ما لاحت له بارقة من إشارات النبوة وحقيقتها يأخذ بها ويغلبها على ما يرى أو يسمع. إنه علم الحقيقة الذى تعلمه فى مدرسة النبوة.

ونعود إلى يعقوب عليه السلام لنرى أن الله لم يتركه وحده ليفكر فى المجهول أو يعتريه الأسى والحزن من جديد، فيكفيه حزنه على فقد يوسف، فقد فقده كابن حبيب إلى قلبه كما فقده كوارث يرث من علمه ويتسلم مهام البيت اليعقوبى فى مستقبله، فقد انتهت رحلة الأحزان التى خاضها يعقوب بمجرد أن اختفى يوسف عن عينيه، ويطمئننا القرآن بأن الله لن يعيد إليه تجربته الحزينة، فحفظه بعلمه بعد نجاح صبره وفوزه بالدرجات الروحية الرفيعة، ويطمئننا

القرآن أيضا بوصفه لحال يعقوب فى موقفه الجديد بقوله تعالى " وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ."

وبهذا الاطمئنان النفسى والروحى ليعقوب نتابع أبناءه فى دخولهم مصر، وقد ورد ذلك فى قول الله تعالى:

وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُم أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ

الأخ الأصغر فى مصر

وحينما دخل إخوة يوسف عليه ورأى معهم أخاه من أمه كما طلب منهم فى المرة السابقة، دنا منه يوسف وهمس إليه قائلا إنى أنا أخوك كما جاء فى قول الله تعالى:

وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

وهنا دخلت السكينة قلب أخى يوسف هذا واطمأن بأنه فى مكان كله طمأنينة، فهو مع أخيه الذى غاب عنه كثيرا، وكان دائما فى فكر أبيه، كما كان إخوة يوسف يعلمون مقداره عند أبيهم، حيث أمضى عمره باكيا يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم، فيوسف كان شعاع النور فى بصيرة أبيه، كما كان خيط الأمل الذى يراود سيدنا يعقوب عليه السلام، حيث كان يؤمن بلقاء يوسف، إن لم يكن فى دنياه، فإنه سيلقاه فى آخرته، فلقاء يوسف إذن محتوم، فما بين الدنيا والآخرة خيط رفيع، فبالإيمان وحده يتأكد المؤمن بحقيقة لقاء كل الراحلين، وذلك من دعائم الصبر واليقين، فيعقوب حينما لا يتذكر يوسف فإنه لا يرى من دنياه شيئا، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، فيوسف هو الأمل، وهو الحياة، وهو صاحب الرسالة والنبوة، فكان لغيابه الأثر الكبير فى قلب والده. فماذا سيفعل يوسف بإخوته، وقد وقعوا جميعا فى قبضة يده، ويقول القرآن الكريم

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ

فحينما أعطاهم يوسف ما جاءوا من أجله من القمح، وضع عيارا أو مكيالا من المكاييل فى رحل أخيه الصغير دون أن يعلموا بذلك ثم طلب من أحد معاونيه أن ينادى عليهم مستوقفا إياهم إنهم سارقون ولصوص، فتوقفوا عن مسيرتهم وعادوا إليه مستفسرين عما فقد كما قال الله تعالى فى القرآن الكريم

قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ

أخبروهم بأن المكيال الذى يكيل به يوسف ويسمى صواعا قد فقد، وهو مصنوع من الفضة وعليه علامة الدولة شأنه شأن أى خاتم لدولة، وسرقة مثل هذا الصواع أو المكيال يعتبر جرما كبيرا، فقالوا لهم من يأتى بهذا الصواع منكم فله حمل بعير، أى يأخذ ما يحمله بعير من القمح مكافأة له، وإن الذى قال لهم هذا قادر على أن يعطيهم هذا الحمل، ونظرا لأنهم لم يسرقوا هذا المكيال وهم متأكدون تماما، قالوا لقد علمتم عنا أننا لم نأت هنا لكى نسرق ولسنا بلصوص، ويقول الله تعالى:

قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ

فقال لهم الجنود المكلفون بتوزيع القمح وبالحراسة قول الله تعالى:

قَالُواْ فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ

فإذا كنتم غير صادقين ووجدنا فى رحالكم هذا المكيال، فما هو الجزاء الذى يمكن أن يوقع على أمثالكم، فقال إخوة يوسف قول الله تعالى:

قَالُواْ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ

فما هو الجزاء فى شريعة يعقوب لمن يسرق، كان الجزاء أنه من يضبط سارقا فانه يكون عبدا من العبيد ويفقد حريته، ومعنى هذا أنه إذا وجد المكيال مع أخى يوسف هذا فسيقبض عليه ولن يسمح له بالعودة، وأنهم سيعودون إلى أبيهم مرة ثانية وقد فقدوه بعد مواثيقهم وعهودهم لأبيهم يعقوب. ويستطرد القرآن مصورا ما حدث بعد ذلك حيث يقول:

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَاكَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلآَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ

فبدأ سيدنا يوسف بالبحث عن المكيال فى أوعية إخوته فوجده فى متاع أخيه الصغير، ومعنى ذلك أن أخاهم الصغير سيحتجز ويعودون بدونه إلى أبيهم، كما عادوا من قبل بدون يوسف، ولكن يوسف لم يحتجزه بل جعله معاونا له.

وهكذا أراد الله أن يرفع أخا يوسف درجات كما رفع يوسف من قبل، ويستطيع يوسف وأخوه أن يكون لهما تأثير على الملك ورعيته فى عبادة الله الحق دعما لرسالة التوحيد فى زمن اعتاد فيه الملوك تأليه أنفسهم ليحكموا هذه الأرض، ويقدموا الأصنام والتماثيل التى ترمز لهم حتى تكون من طقوس العبادات.

وتلك رسالة يوسف الموجهة إلى الحكام، وفى ذلك صلاح للرعية، فقد أصبحت رسالة سيدنا يوسف واضحة، فهى رسالة خاصة بأصحاب الشأن، فكانت كفاءة يوسف فى إدارته لعمله من أسس ترغيبهم فى الإيمان، وهذا ما لفت نظر أمثال هؤلاء الحكام جميعا، وفوق كل ذلك ما تمتع به يوسف من شفافية وأدب وعلم فى تأويل الأحاديث، فهو عليه السلام داعية من نوع خاص.

التسرع بإلقاء التهم كذبا

يوضح القرآن الكريم سوء أخلاق إخوة يوسف عليه السلام، حيث اتهموا يوسف أخاهم بأنه قد سرق من قبل، وتلك إشارة قرآنية إلى خطورة الاتهامات الكاذبة ومدى تأثيرها السيئ على الناس والمجتمع، وأن التهم الباطلة سلاح لا يملك الحجج والبراهين القاطعة، ويوضح القرآن ذلك فى قول الله تعالى:

قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ

حينما سمع يوسف منهم قولهم هذا، تذكر فعلتهم معه وتمتم فى نفسه قائلا ما أنتم إلا عصبة أشرار، وقد انطوت نفوسكم على الحقد الدفين، واستطردوا قولهم مستعطفين العزيز بأن يحتجز واحدا منهم بدلا من أخيهم الصغير هذا، حيث إنهم قد عاهدوا أباهم على عدم التفريط فيه أو السهو عنه، كما أكدوا حرصهم الشديد على أخيهم، وكما جاء فى قول الله تعالى

قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

فماذا قال لهم يوسف؟

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ

قال لهم يوسف أستغفر الله أن آخذ بريئا وأضعه فى السجن كسارق، والسارق هو الذى وجدنا مكيالنا عنده، ولن أستطيع أن أسلمه لكم، وإن فعلت هذا فأنا إذن من أهل الظلم، وتلك حيلة يوسف التى كان يفكر فيها من قبل، وقد دخلت تلك الحيلة على إخوته، وبكى كبيرهم وظهرت عليه علامات الحيرة والخوف، وأخذ يصرخ ويولول مذكرا لهم بما قطعوه على أنفسهم من وعود وعهود لأبيهم بالمحافظة على أخيهم هذا، وأن يعقوب عليه السلام

أخذ عليهم موثقا من الله فماذا سيفعلون؟ وأردف قائلا لن أغادر هذه البلدة، ولن أستطيع أن ألتقي بوالدى حتى يأذن لى فى العودة، فاذهبوا إليه، أو يحكم الله فى هذا الأمر، والله هو خير الحاكمين، وترجم القرآن هذه المعانى بقول الله تعالى:

فَلَمَّا اسْتَيْئَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ * ارْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ.

وهكذا فكروا فى القول الذى يمكن أن يتحدثوا به مع أبيهم ويقولون إن ابنك هذا قد سرق وضبط، وإننا لا نتحدث من فراغ فقد رأينا أن مكيال الملك قد أخرج من وعائه، وإننا لم نكن نعلم أنه سيفعل هذا، فهذا فى علم الغيب، وإننا لا نعلم الغيب، فلا تؤاخذنا فيما حدث، ولك أن تسأل القرية التى كنا فيها وتسأل القافلة التى أتينا معها، وإننا لسنا كاذبين. وهذا يحكيه قول الله تعالى:

واسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ

واستمع يعقوب لأبنائه ثم نظر إليهم قائلا كما فى قول الله تعالى:

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

وابتعد عنهم واغتم وحزن حزنا شديدا وتذكر يوسف، وبكى عليه وعلى أخيه بكاء مرا، وامتلأت عيناه بالدموع وكأنها سحابة بيضاء تحجب البصر، ولم تعد عيناه ترغب فى رؤية الحياة، وظن إخوة يوسف أن أباهم قد أصيب بالعمى، فلم يعد ينظر إليهم ويتأمل فى وجوههم

كما هى العادة بين الأب وأبنائه، وتولى عنهم وقد ألم به حال من الزهد، وتحدث فى نفسه بصوت خفيض بكلمات يعبر عنها القرآن الكريم بقول الله تعالى:

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ

ولكنهم سمعوه وقالوا له ستظل دائما تذكر يوسف، فإن فى ذكراه استفزازا مباشرا لنا، ولو استمررت على هذا ستهلك وتنتهى، وجاء هذا المعنى واضحا فى قوله تعالى:

قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَـٰلِكِينَ

فقال لهم قول الله تعالى:

قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ

فقد فوض أمره إلى الله، وفى الحال كشف الله عنه مثل هذا العذاب، بل ربما أطلعه على إشارة روحية، وهى من العلوم الربانية التى تؤكد أن ابنيه هذين فى حفظ الله ورعايته، وإن لم يطلع على إشارة روحية من الله فيكفيه رؤياه الصالحة التى كان يرى من خلالها ابنه يوسف عليه السلام لتؤكد له أنه لا يزال على قيد الحياة، ومع ذلك كان يستشعر المعاناة طالما أن عينيه لم تريا يوسف وأن يده لا تصافحه، كما ازدادت معاناته لما سمعه من أخبار سيئة عن ابنه الآخر ، ولا يخرجه من محنته هذه إلا رؤيته المعتادة ليوسف، وهذه هى رياح الشوق والحنين قد هبت على يعقوب، فقد زاره يوسف فى منامه وعاش فى روعه وكيانه، فتوكل على الله وعلم أن لله أمرا فى كل ما حدث، وأن الله يطمئنه دائما من داخل قلبه، وبالتالى فإن كلمات الأبناء التى تجزم وتؤكد مرة أن يوسف قد أكله الذئب ومرة أخرى أن ابنه الآخر قد سرق تخالف الحقيقة، فالإشارات الآتية من عالم الغيب هى المصدر الحقيقى للمعرفة رغم اختلاف الواقع، وخاصة فيما تأكد لهم سرقة أخيهم لصواع الملك، وهذا هو الفارق بين الواقع والحقيقة، وعند ذلك هتف يعقوب من أعماق قلبه وصاح فى أبنائه بضرورة إعادة البحث عن يوسف وأخيه، وجاء ذلك فى قوله تعالى:

يَـٰبَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَـٰفِرُونَ

وتعجب أبناء يعقوب من هذا التحول المفاجئ وظنوا أن أباهم يهذى، وعلى الفور أجابهم بحزم قائلا لهم لا تجلسوا حولى هكذا تبكون فيوسف وأخوه فى حفظ الله، وعليكم أن تذهبوا إلى مصر ولا تيأسوا من روح الله حتى لا تكونوا من القوم الكافرين.

وهكذا كانت كلمات سيدنا يعقوب إلى أبنائه تدفعهم ليذهبوا ويبحثوا عن يوسف عليه السلام وأخيه، فهما متواجدان فى قلبه، ولسوف ينتظر الطيور المهاجرة حتى تعود.

وذهب إخوة يوسف يبحثون عن أخيهم عند عزيز مصر كما نصحهم أبوهم سيدنا يعقوب عليه السلام، فأعدوا عدتهم وقصدوا عزيز مصر لعله هذه المرة يفرج عن أخيهم، فلما دخلوا عليه بادروه بالتحية وتحدثوا إليه كما جاء فى قوله تعالى:

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَـٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ

وهكذا عادوا مرة أخرى إلى عزيز مصر يحملون بعض ما يملكونه لاستبداله بما يحتاجونه من القمح، وطمعا فى استرداد أخيهم المحتجز لدى العزيز، فقالوا له نرجو أن توفى لنا الكيل وأن تكرمنا كما كنت من قبل وسيجزيك الله أحسن الجزاء، فقد كنت دائما تتصدق علينا وتكرمنا بكرمك المعهود، ومعنا بضاعة قليلة القيمة فنرجو ألا ترفضها، ولم يكن لهم من باب يدخلون منه إليه إلا القول اللين الذى يدعو إلى التسامح والتعاطف، وتلك لهجة جديدة قد تغير من أسلوبهم فى الحياة وتدعوهم إلى مسلك طيب، وهذا درس هام فى العقائد الإيمانية، وعلى الفور قال لهم العزيز وهو يوسف عليه السلام هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون، كما جاء فى قول الله تعالى:

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ

كان ذلك اللقاء الحاسم هو أقسى درس يوجهه يوسف إلى إخوته، فقد أعلمهم أنه هو يوسف وأنه وحده هو العزيز الذى يملك توزيع القمح على سكان مصر وما حولها، هذا هو أخوهم الذى لم يحافظوا عليه وألقوه فى غيابة الجب من قبل وآذوه، والآن أصبح يوسف على قمة من قمم العرش، إذ عليه مسئولية إعاشة وإغاثة الناس، وتلك من الطبيعة الإيمانية التى تقوم على الرحمة والإغاثة، فلا بد للأنبياء والأولياء وكذلك الدعاة من توافر طبيعة الغوث، وقد تجلى ذلك واضحا فى حياة يوسف عليه السلام فقد بوأه الله سبحانه وتعالى المكانة العالية، وأجلسه على مقعد حاكم، وأسند إليه أرزاق الناس ومعاشهم، وبالتالى باشر غوثيته فى أداء مهمته التاريخية.

ولا تزال الأمانى والآمال تراود يوسف لرؤية أبيه وأسرته، فقد افتقد أسرته زمنا طويلا فهذا هو أخوه الصغير وقد أصبح على مقربة منه ورأى فيه ذكريات حياته الماضية، فلقد أحبه أبوه مثلما كان يحبه، فهذا الأخ الصغير اعتبره يوسف رسالة رقيقة من والده إليه فأحس بأن ما كان يتمناه قد تحقق، ونظر إلى أخيه الصغير هذا قائلا له إنى أنا أخوك فلا تبتئس ولا تحزن، فأنت الآن مع يوسف أخيك، ولنترك للقارئ أن يتخيل روعة لقاء بين شقيقين باعدت بينهما الأيام.

فبين العزيز ما كان يخفى عليهم إذ إنه بدأ يكاشفهم بأمر لم يعلنوه، ويفاجئهم بحدث كانوا قد فعلوه بأخ لهم وهو يوسف عليه السلام، ووصفهم بأنهم جاهلون، فالجاهلون دائما لهم صفات العدوان والاعتداء على الآخرين كما جاء فى قوله تعالى " وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا"(الفرقان: ٦٣).

فالجاهلون هم الذين يقومون بسب الناس والادعاء عليهم بالكذب وإلصاق التهم بهم وإحداث الشر وكل ما فى الأمور من سيئات لا تخرج إلا عن طريق الجهل والبعد عن العلم، فلما حدثهم بما غاب عنهم وذكر لهم كلمة يوسف بدءوا ينظرون إليه بدقة ويشخصون بصرهم نحوه فإذا بهم يأسفون على ما بدا منهم ويندمون على ما حدث، وينظرون إلى يوسف وقد جلس على عرشه يرتدى ملابس الحكام ويشع المكان بالهيبة والاحترام، وعلى الفور قالوا: قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ. فأجابهم يوسف عليه السلام كما جاء فى القرآن الكريم:

قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا

وقبل أن يتحدث يوسف مع إخوته في أي عتاب أو شكوى أو مناقشة أو مجادلة، قال لهم: قد من الله علينا، فاعتصم بالله سبحانه وتعالى، وبين لهم أن الذي يكون مع الله لا يحزن ولا يفزع ولا يجزع، فالله هو خير الحافظين، وأن الطريق إليه كان طريق التقوى والصبر، وهذا هو الإحسان الذى من الله به على يوسف عليه السلام، بأن خلع عليه ملابس التقوى، ووهبه الصبر الجميل الذى جعله ينظر برضاء إلى أقدار الله سبحانه وتعالى، كما اعتاد لطف الله وغوثه فى كل أزماته وشدائده. وقد وضح هذا المعنى فى الآية القرآنية فى قول الله تعالى:

قَالُواْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.

لقد كشفت هذه الآية القرآنية عن أسرارها فألقت ضوءها على ما تكنه من مقامات روحية، كتقوى الله والصبر الجميل، وحينما يجتمع هذان المقامان فى قلب واحد، فإنهما يمثلان حشدا روحيا يعانق بعضه بعضا، وتلك هى العلاقة الروحية التى يقترب بها العبد من ربه ويسجد القلب فتزداد السكينة، وكلما اقترب العبد من ربه كلما سجد وسكنت جوارحه عن الأذى واطمأنت نفسه، وكان هذا هو حال يوسف عليه السلام، حيث كان دائم التطلع إلى أنوار ربه، والله سبحانه وتعالى يراه، فكان فى مقام الإحسان، والذى عرفه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله " مالإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " (البخارى).

فالاتجاه إلى الله هو اتجاه نحو الجمال، والاتجاه لغير الله هو اتجاه نحو القبح الذى يسكنه الشيطان، فيوسف عليه السلام لم يبتعد عن ربه أبدا، فهذا هو سر نجاته وحفظه الدائم، ولنترك يوسف فى مقامه هذا وهو أعلى بكثير من مقامه الذى رآه عليه إخوته، وهو يجلس على كرسى من كراسى الحكم وبيده مقاليد الأمور.

وبعدما أبصر إخوة يوسف عليه السلام أخاهم وقد ارتقى رقيا عظيما، وجلس فى مقاعد الحكام وأصحاب الجاه والسلطان، ظنوا أن منَّ الله على يوسف قد بلغ منتهاه، ولكنهم لم يفطنوا إلى

أن ما منَّ الله به على يوسف ليس أن يتبوأ كرسى الحكم، أو يكون على قمة السلطة والنفوذ، ولكن المن الحقيقى فى رضاء الله عنه وتوفيقه، وما بلغه يوسف من مراتب روحية جعلته نبيا مباركا من أنبياء الله، فإن فطنوا إلى ما كان عليه يوسف من ظاهر براق، فإن يوسف عليه السلام أراد أن يبين لهم أن ما وهبه الله من رفعة روحية هى أعلى بكثير من أى رفعة دنيوية، ولذلك يجيب الله سبحانه وتعالى مصححا لخواطرهم بقوله تعالى:

إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ."

ومع هذا فإن إخوة يوسف مازالت أبصارهم شاخصة نحو المجد والقمة والرفعة، وكراسى الحكم ومظاهر الأبهة، فقالوا ليوسف كما جاء فى قول الله تعالى

قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِئِينَ

فقد جذبهم السلطان والحكم وجعلهم يعترفون بأن الله قد آثر يوسف عليهم، بما وصل إليه من مركز اجتماعى مرموق، وما زالت عيونهم غير ناظرة إلى ما وصل إليه يوسف من نبوة جعلته مكرما فى رحاب الله سبحانه وتعالى. فما زالت المظاهر لها البريق واللمعان، ومازالوا هم ينظرون إلى الحياة من خلال مظاهرها وبريقها، وبالتالى بدءوا يحترمون يوسف لماله وجاهه وسلطانه، وإن كانوا من قبل يكيدون ليوسف كيدا على ما فضله الله به عليهم من محبة ورضاء، وهذا معيار يكيل به الناس خطأ حينما يوزن الشخص بماله وثرائه ونفوذه، ويهدر ميزان شخص آخر لأنه ليس له جاه ولا سلطان ولا نفوذ ولا مال، فمعيار التفرقة يجب أن يكون فى تقوى الله سبحانه وتعالى.

ولعل إخوة يوسف يكونون قد استوعبوا مثل هذا الدرس وقد بدا عليهم ملامح التغيير نحو ضرورة الإيمان والاعتصام بالله.فقد لعب الجاه والسلطان الذى كان عليه يوسف دورا هاما فى حياتهم هذه، فأحدث فيهم مثل هذا التنبؤ، وهذا تأثير ينقاد له الكثيرون، وإن بعض المجتمعات الإنسانية تحتاج لإيمانها رسلا وأنبياء من الملوك والحكام كأمثال داود وسليمان عليهما السلام حتى يؤمن الناس وينقادوا إلى عبادة الله.

وها هم إخوة يوسف وقد بدا عليهم علامات الإيمان بعدما آثر الله يوسف عليهم وجعله نبيا مرموقا في مجتمعه، ويقيني أنه إن لم يصل يوسف عليه السلام إلى مثل هذه المنزلة من الحكم ما آمن به إخوته، بل كان سيظل هو يوسف المفترى عليه، كما يتكشف من ذلك ضرورة استخدام الحكم والسلطان والمال والجاه من أجل الدعوة إلى الله طالما أن الناس لا تستمع إلا إلى صوت الحاكم والدعاة من أصحاب الجاه والسلطان، فلكل عصر منطق.

ونعود إلى إخوة يوسف فى أحوالهم الجديدة حيث شعروا بالندم واعترفوا بالخطأ الذى ارتكبوه في حق يوسف، بل وفى حق أنفسهم، وتلك هى التوبة النصوح التى يتقبلها الله من كل التائبين، فقال الله تعالى على لسان يوسف:

قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحَمَينَ

فهنا مقابلة واضحة ولطيفة ما بين الاعتراف بالخطيئة وعدم التكبر، وإنه من الشجاعة أن الإنسان حينما يخطئ، يقول أخطأت ولا يجادل فى خطئه هذا، ليحول الخطأ إلى صواب.وذلك منطق لا يعيش إلا فى نطاق الجهل والبعد عن العلم، فلما أعلنوا خطأهم قال لهم يوسف " لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ " أى لا محاسبة عليكم، وأن كل ما فعلتموه انتهى، وارتضى يوسف أن يبدأ بخطوة جديدة وينسى ما مضى منهم، ودعا الله أن يغفر لهم، وهو دعاء مستجاب، ولذلك فهذه الآية القرآنية لا يجب أن تمر مرا سريعا، لأن فيها التحول الكامل من حال إلى حال، من حال الخطيئة إلى حال المغفرة، والله سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم فى هذا الموقع " يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحَمَينَ ".

تغير الموقف وانتهت الخصومة والعداوة والبغضاء التى كانت فى قلوبهم جميعا، ونظر إليهم يوسف نظرة الأخوة الصادقة والتفاهم التام، وبالتالى أصبحت لهم مهام سيكلفهم بها يوسف عليه السلام فيما يختص بالتخفيف عن أبيه، وما يستشعره من حزن دفين وألم شديد على فقده ليوسف وأخيه الصغير من بعده، ولذلك كلفهم يوسف عليه السلام بأن يذهبوا بقميصه إلى أبيهم، وتلك رسالة من يوسف إلى أبيه.

قميص يوسف

حقا إنها رسالة هامة استعرضها القرآن بقول الله تعالى:

اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ

وخلع يوسف قميصه، وهو قميص مميز لأنه قميص حاكم يجلس على كرسي الحكم، وليس ذلك القميص الذى مزقته امرأة العزيز من قبل، فهذا قميص وذاك قميص، أما القميص الذى مزقته امرأة العزيز فكان قميص المحنة التى مر بها يوسف وتجرع بسببها مرارة السجن، وأما قميص الحاكم فلابد وأن عليه علامات وإشارات تميزه عن غيره، وأن من يحمله يتباهى به وكأنه بطاقة مرور تدعو إلى عدم الاعتراض عليه حتى يصل بأمان إلى مقصده، ومن الناحية الروحية فإن قميص يوسف هذا روحيا له تأثير أيضا على يعقوب عليه السلام، حيث يصدقه بإيمانه القلبى، فقد اعتاد يعقوب عليه السلام أن يجعل من قلبه صديقا له يمده بالإلهام، ويضفى عليه بالشفافية، كما يملى عليه حديث الخاطر، وتلك هى الصداقة الحقة التى تعين الإنسان فى وحدته، وتقف معه فى حزنه واكتئابه.

وبذلك العلم اللدنى أيقن يعقوب عليه السلام أن قميص يوسف بين يديه يمثل رسالة فيحاء كتبها يوسف بشفافيته وعلمه ليقرأها يعقوب بشغف ولهفة بعد طول انتظار، وقرأ يعقوب الرسالة، فتفتحت عيناه مرة أخرى نحو الحياة، بعد أن أعرض عنها وزهد فيها ، فقد آن الأوان أن تجف دموع الحزن، وأن تتبدل بدموع الفرح، والتى تعيد إلى العين نضارتها ورؤيتها وبصيرتها.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونَ* قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَـٰلِكَ الْقَدِيمِ* فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَـٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ* قَالُواْ يَـٰأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَـٰطِئِينَ* قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

بينما كان يعقوب عليه السلام يجلس بين قومه وأهله، فإذا به يهتف مؤكدا بأن يوسف على مقربة من مجلسه، وأن يوسف في أجواء الوجود، وليس كما كان فى متاهات الغياب يتوارى فى عالم النسيان، وتعجب الحاضرون من هذه المفاجأة التى تعيد إلى ذاكرتهم خيال يوسف وإشراقة وجهه الجذاب، وأن تذكر يوسف يحيل حياتهم إلى جحيم من الشقاء والتعاسة والحزن، مما قد يشقى أباه يعقوب، الذى تحزنه لوعة الفراق.

وأزاح يعقوب عليه السلام بكلماته غبار النسيان في تذكره ليوسف، بل وفى إعلانه وتهليله بأن يوسف فى طريق عودته، ولكن من كانوا حوله استشعروا أن يعقوب يهذى بكلمات، ومازالت الأوهام تساوره، وأن ما ذهب إليه من أفكار لا يسر لها عدو أو حبيب، فخرجت كلماتهم عنيفة وقاسية، وأقسموا بأن ما يدعيه يعقوب إنما هو سراب وخيال بعيد يؤدى إلى الحزن والكآبة والدموع والآلام، وما كان له أن يذكر كلمة يوسف بعد تلك المأساة التى عاشها فى حياته وسلبت منه السعادة، وطمست دموع عينيه رؤيته للحياة ومباهجها.

وخيم السكون على هذا الموقف، ولكنه لم يستمر طويلا، فإذا بأبنائه يدخلون عليه مهللين فرحين بأنهم قد عثروا على يوسف، وألقوا بقميص يوسف على وجه أبيهم ليتحسسه، وكأنه رسالة مكتوبة تتحدث عن يوسف وأخباره، وتلك من علوم العارفين.

قد يعجب القارئ حينما يعلم أن أولياء الله الأقطاب يرون بقلوبهم ما لا تراه العيون، فكنوز الأرض تحت أقدامهم، بل تراودهم عن نفسها بما تحويه من ذهب أو فضة وإلى غير ذلك من معادن نفيسة، وحتى الآثار القديمة تقع فى بصائرهم، ومع ذلك فإنهم لا ينشغلون بهذه النعمة، فكل شغلهم ينصب فى أحوالهم مع الله سبحانه وتعالى، وتلك علاقة فريدة من نوعها لا يفسدها إلا حب الدنيا وشهواتها، وكما يرون فإنهم يسمعون، وقد أحس يعقوب عليه السلام بقربه من ابنه يوسف ، فعبر عن ذلك بأنه يشم رائحة يوسف.

وتحقق يعقوب من صدق رسالة قميص يوسف فلمعت عيناه وجفت دموعه تلك التى كانت تحجب رؤيته للحياة، فبدأ ينظر إلى الدنيا ومن حوله بفرحة وسرور بينما كانت عيناه مشدودتين نحو السماء وقلبه معلقا بحب الله.

وتفقد آل بيت يعقوب قميص يوسف الذى يرتديه أثناء مباشرته للحكم، بما عليه من نقوش أو رسوم مخصصة للحكام والقادة، وأيضا رأى يعقوب عليه السلام هذا القميص بمظهريته، كما رآه بروحانيته من قبل، فلم يلبث إلا أن صاح فى أهله من خلال نبرات الإيمان والحقيقة المتدفقة من قلبه وعلمه وروحه، فقال لهم" أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ".

وبذلك تحقق آل يعقوب من نبوته وعلمه، فجذبهم ذلك إلى الدخول إلى بيت يعقوب الروحى والانتساب إليه، وتكشف ذلك الدرس الروحى وطبيعة يعقوب الروحية ومدى ما أفاء الله عليه من علومه اللدنية، وأن يوسف عليه السلام هو التلميذ الأثير ليعقوب ، وقد تخرج فى مدرسة الحياة بعد أن من الله عليه بالعلم واحتضنه بإحسانه ولطفه ورحمته. وأيقن إخوة يوسف وكل الحاضرين فى البيت اليعقوبى أن يعقوب يعلم من الله ما لا يعلمون، وتلك كرامة ظاهرة وواضحة تؤكد طبيعة الحياة الروحية.

وراح إخوة يوسف يحاسبون أنفسهم ويستعرضون خطاياهم، وخاصة ما حدث بينهم وبين أخيهم يوسف، وأثر ذلك على أبيهم يعقوب حيث ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم، ودفعهم إلى ذلك ما رأوه وما سمعوه، وقد رأوا بأعينهم أخاهم يوسف وقد تقلد مقاليد الحكام، كما تأكدوا من ميراثه للنبوة من أبيه يعقوب، فقد من الله عليه بالعلم والحكم، كما سمعوا مقالة أبيهم، حينما أكد أن يوسف فى الطريق إليه، وأن الحقيقة التى كان يؤمن بها لم تخدعه قط، وأن الذين أرادوا خداعه هم أبناؤه الذين كانوا يؤكدون له أن يوسف قد ضاع وانتهى إلى الأبد، فقد أكله الذئب.

ولم يكن ذلك قول واحد منهم، بل أجمع إخوة يوسف على تلك الشهادة التى لم ينخدع يعقوب أبوهم بها، رغم أن ظاهر الأمر يؤكد أن يوسف قد أكله الذئب، ولكن الحقيقة النابعة من إلهام القلب تؤكد أن يوسف لا يزال حيا يرزق، ولم يأكله الذئب كما ادعوا، وهذا هو الفارق بين واقع يرسمه الكذب وبين حقيقة تنبع من صدق القلب، وطلب إخوة يوسف من أبيهم أن يستغفر لهم، فالمغفرة هى ستر العيوب والمعاصى، وتلك من إرادة الله وحكمه.

أما أبوهم فهو الأب العطوف الحنون الذى يستطيع أن ينسى كل ما حدث، ويصفح عن أبنائه هؤلاء، وتلك هى عاطفة الأبوة التى لا يتخلى عنها يعقوب عليه السلام، فهو أب قبل أن يكون

نبيا أو رسولا، وبذلك حول عقوق أبنائه إلى صفح جميل، فكانت التوبة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى، وأن رضاء يعقوب عليهم كان سببا لاستجابة الله بالمغفرة.

سيدنا يعقوب فى طريقه إلى يوسف فى مصر

بعد محنة كئيبة عاشها يعقوب فى لوعة الأسى والحزن على فراق يوسف، إذ بالأيام التى قهرت يعقوب تبتسم فجأة وترسم له طريق السعادة، بعد صبر طويل وحزن عميق أفقد يعقوب الرغبة فى رؤية الحياة، فطالما أنه لا يرى يوسف فلا حاجة به لهذه الدنيا، والآن وقد لاحت أنوار يوسف من بعد ومن قرب، فالبعد فى المسافة والقرب فى القلب، فكان إحساسه مرهفا بالسعادة، حيث سيرى ابنه بعد غيبة طويلة، كما سيراه حاكما له قدر عظيم.

ولسوف تكتمل السعادة والفرحة لأنه سيدخل مصر وهى أم الدنيا، ليشهد معالم الحضارة والرقى، فمصر دائما آسرة للقلوب وجاذبة للأفكار، وبذلك تهيأ يعقوب عليه السلام ليبدأ رحلته عبر الصحراء إلى مصر، وقد تطول الرحلة حسبما يطول الفراق وقد تقصر الرحلة ويزول عنها العناء حينما يكون يوسف فى القلب، وما دام يوسف فى قلب أبيه يعقوب، فإن يعقوب فى سفره يستشعر أنه يعيش فى مصر ويشرب من نيلها العظيم، فحبه ليوسف قرب كل المسافات، وأزال التعب والعناء، أليس ذلك جزاء لمن صبر وتحمل لوعة الفراق؟

ويمضى يعقوب عليه السلام بركبه فى طريقه إلى مصر، بينما تتهادى إليه ذكرياته مع يوسف، وما كان يشهده من رؤى صادقة وإلهامات قلبية، فلم تعد الرحلة مسافات، بل هى رحلة فى الحياة تتخللها الأحاديث القلبية والذكريات العطرة والأمل الذى كان يتطلع إليه يعقوب لاستمرارية البيت اليعقوبى، وتلك هى رحلة يعقوب عليه السلام إلى مصر.

وعلى الجانب الآخر ينتظر يوسف رؤية أبيه بلهفة ورغبة شديدة، وتساوره الأيام الجميلة التى قضاها بين يدى والديه، فكلاهما يستشعر الآخر، وتلك هى رحلة يوسف فى أحلامه وتوجهاته وروحانياته وهو قابع فى قصره حيث تتبادل الأشواق وتتدفق الذكريات، وهذا ما كان عليه الاتصال القلبى بين يعقوب الأب ويوسف الابن، ففى كل لحظة ينهمر على كل

منهما سيل من الكلمات والبرقيات الروحية التي تحمل كل معاني الحب والشوق والرغبة في اللقاء.

فلنترك يعقوب عليه السلام في رحلته وأحلامه لنستقبله عند مدخل القصر الذى يشرفه يوسف ويطل منه منتظرا وصول ركب أبيه وقد تهلل وجهه بالنور كالقمر فى طلعته وضيائه. ويدخل يعقوب مصر وقد أحاطته أنوار الملائكة وابتسمت له السماء وفرحت به الأرض، ليضاف رصيد روحى إلى أرض مصر بمقدم يعقوب عليه السلام، حيث أسرى بقلبه من الشام إلى مصر، وحق عليه القول حينما أسماه الله بإسرائيل، حيث كان مسافرا ومهاجرا إلى الله أثناء قيامه وصلواته في جوف الليل، وذلكم هو الإسراء اليومى الذى يكون فيه يعقوب بين يدى الله أرحم الراحمين.

ومصر البلد الأمين تفتح ذراعيها لاستقبال يعقوب كما فتحت ذراعيها لاستقبال الرسل كإبراهيم وموسى وأخيه هارون والمسيح عليهم السلام، ولو طال الأجل بالرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لتوجه إلى مصر ليمكث فيها، حيث قال "إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا، فذاك الجند خير أجناد الأرض، قال أبو بكر ولم ذاك يارسول الله؟ قال: لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة" (السيوطى).

فلما علم سيدنا يوسف بمقدم أبويه وإخوته أسرع لاستقبالهم على أبواب القصر وأدخلهم إلى ديوانه العظيم، وأخذ بيد أبويه ليصعدا على عرشه تكريما لنزولهما عليه ضاربا المثل بمكانة الوالدين، وتلك ترجمة واضحة للمفاهيم الدينية السمحاء، وهذه هى التربية الروحية الحقة التى خلفت وراءها درسا كريما فى التواضع للوالدين.

ويبقى الدرس قائما للملوك والحكام، فلا حرج عليهم من تقديم وافر الاحترام للوالدين، حتى ولو كانا فى ساحة حكمهم، وتلك ضمن رسالة يوسف للملوك والحكام، وإمعانا منه فقد تمادى فى إخضاع نفسه لوالديه الكريمين، كما سجد شكرا لله، وتبعه فى ذلك إخوته، فقد آن لهم أن يتطهروا ويعودوا إلى حياة النور كأبناء لنبى الله يعقوب عليه السلام.

وتلك إشارة بالغة تؤكد أن المعادن النفيسة كالذهب حينما توضع فى الماء لا تصدأ، وأبناء سيدنا يعقوب من معدن نقى، ومهما فعلوا أو أساءوا فقد ندموا على ما فعلوا، واستغفروا لذنوبهم، وعادوا إلى صوابهم ورُدُّوا إلى يعقوب عليه السلام، كما رُدَّ إليه يوسف، وكما رُدَّ إليه بصره بعد غياب طويل، والآن لم يعد للشيطان سلطان فى هذا المكان، وإن الله سبحانه وتعالى هو خير الحافظين، وهو أرحم الراحمين. وقد آن لسيدنا يوسف أن يلقى كلمته بين يدى والديه قائلا كما جاء فى قول الله تعالى:

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ* وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْجَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

فكم كان يوسف عليه السلام يتذوق ألطاف الله على قلبه وعلى نفسه طوال حياته، فإن أراد يوسف أن يصف ربه فلن يجد وصفا أقرب إليه من أن الله لطيف، العالم مخيف ولكن الله لطيف، فما دام الله لطيفا فإن الأحزان لا تدوم، وكذلك تزول وتتبدد الأوهام والمخاوف، فمهما وقع من أحداث وتراكمت الأهوال فإن الله سبحانه وتعالى بلطفه باعد بين يوسف وبين ما تعرض له من أحداث جسام حتى لا يضعف أو يكتئب.

وتمر الأحداث فى خيال يوسف لتتوقف عند الحدث الأخير الذى جمع بينه وبين إخوته وأبويه متذكرا وشاهدا على أفضال الله وبركاته عليه، وهذا ما جعله يسجد لله ويشكره من رأسه إلى أخمص قدميه، وذلك هو السجود الذى سمت فيه الروح لتعرج إلى الحب الإلهى الذى ربط بينه وبين الله سبحانه وتعالى.

وهكذا عبد يوسف ربه وأدركه الله بلطفه وإحسانه ورحمته، كما علمه حبه وتعظيمه وتقديره، فخرجت الكلمات والدعوات من قلبه إلى مليك السموات الرحمن الرحيم رب العزة لطيف السماء والأرض، ليتضرع إلى الله بدموع عينيه تنساب كفيضان نهر أو ينبوع ماء تفجر من

الأرض، وذلك تعبير عن تأثره الشديد بلمسات ربه الحانية عليه، وقد علمه الله الحب فانشرح صدره، ومسح الله على قلبه فخرجت أحزان الماضى ومآسيه واتسع القلب ليسع ربه، وانسابت كلمات يوسف تحمل كل تسبيح وذكر ودعاء، فخلدها الله وكتبها فى لوحه المحفوظ، فانسابت مرة أخرى وحيا على قلب الرسول الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين وذلك فى قول الله تعالى.

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّٰلِحِينَ

إنها مناجاة خرجت من قلب يوسف ليخاطب ربه عن قرب قريب، فلم يقل يوسف: يا أبتاه أو يا أماه، ولكنه خاطب مولاه قائلا " رب "، وكأنه يقول أبى وأمى، فحينما فقد الأب لم يفتقد الرب ، فكلمة الرب عنده لها رنين فى قلبه، فكلما قال رب قال القلب حبى وفؤادى ونور عينى، إنها أنشودة العبادة فى ابتهالاتها وخضوعها وسجودها وشكرها لربها.

وبهذا الأداء الروحى يقترب يوسف من ربه أكثر وأكثر ويسجد أكثر وأكثر، وتلك مزامير دعائه التى كان يترنم بها فى كل أحواله، فى السراء والضراء، كما أنها كلمات الشكر التى لازمت يوسف طوال حياته ، وحتى فى غمرة فرحته بلقاء أهله وأبيه الذى أفنى حياته بكاء عليه، وكذلك زوجة أبيه التى جاءت تسعى لترافق هذا الشيخ الكبير فى رحلة العمر، ليرى ابنه فى مكان مرموق مشرف.

ويتواضع يوسف تواضعا جما لله سبحانه وتعالى وهو بين يديه فى صلاة روحية دائمة ومستمرة ليقول " رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ ". فلقد آتاه الله سبحانه وتعالى وأعطاه من علمه ومن روحه ومن بركاته ومن نعيمه ومن فضله ومن صبره، فأعطاه شيئا ما من ملكه لا يقارن بالملك الدنيوى، والله سبحانه وتعالى هو مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، فالبصر من ملك الله، والسمع من ملك الله، والحياة من ملك الله، ولا إحاطة لملك الله الواقع تحت قدرته وهيمنته وإرادته وعلمه وحكمه.

ويتجلى الله على رسله وأنبيائه وأوليائه بأسمائه الحسنى، ومن أسماء الله الحسنى اسم الملك الذى تجلى به على يوسف عليه السلام، فمن كان فى هذا الحال يمن الله عليه باستجابة دعوته، ويخلفه على أرضه ويمنحه من قوته وأسراره، وكل من يتجلى الله عليه بأسمائه الحسنى تحفهم الملائكة ويذكرهم الله فيمن عنده ويسمع نداءهم وينظر إليهم.

ومن هذا العطاء كان ليوسف النصيب الوافر ليتمتع بملك الله وقد توَّجه الله فى الدنيا وفى الآخرة وأحاطه بملائكته وأنواره ومحبته، وألقى عليه أسرار جماله ولطفه وحبه، وكل من نظر إلى يوسف وقع أسير حبه وسماحته، وهذا من أسرار الله فيه، فكلما دخل على إنسان أو على بيت أو على حاكم كان له التأثير والاستجابة والقبول، وتلك من الأسرار الإلهية التى خرجت من عالم الغيب لتبقى مع إنسان الأرض تكمن بداخله وتبقى دائمة كنعمة خالدة تتوارثها الأجيال الصالحة.

إنَّ هذا الجمال الأخاذ لا يقل عن جمال القمر فى طلعته، ولا النجوم فى تنسيقها ونظامها، ولا السماء فى سموها ورقيها، ولا الأرض فى زخرفها وزينتها، فإن هذا كله يمثل القوة التى كانت تسبق يوسف عند كل باب، وفى كل لقاء، وفى كل قلب، ومهما تحدث يوسف عن ملك الله فهو حديث قليل، وما عند الله كثير.

ولم يمض يوسف آخذا من ملك الله وحده مكتفيا بما منَّ الله عليْه، ولكنه من عليه أيضا بعلم من علمه، والعلم هو الذى يحرس الجمال ويساند القوة ويدفع الإنسان نحو الحق والخير، وقد علمه الله ليتحدث من لوحه المحفوظ ويؤمن بخزائن أسراره، وينال من كل بركاته، وليس ما بين الله والإنسان إلا العلم.

فالعلم هو محور العبادة وجوهر المعرفة، بينما الجهل يطرد الرحمة من القلب والاطمئنان من النفس، كما يدفع صاحبه نحو الأذى والشر، ولن يكون عالما من كان فظا غليظ القلب، ومن تخلى عن مروءته، وقد حبا الله يوسف علما ربانيا فيتحدث عن تأويل الأحاديث، وتلك مناجاة تحكمها الصلة الوثيقة بالله، كلماتها إلهامات، ولغتها فيوضات من بحور علم الله وملكه وقدرته، وتلك هى نوعية العلم التى وهبها الله ليوسف، ليفسر الرؤى، ويترجم معانى الإشارات والرموز التى يراها فى منامه أو يقظته، فعنده الخبر اليقين، كما يطلعه الله على أحداث مستقبله، وكل ذلك كان يراه سيدنا يوسف شيئا قليلا من علم الله فاطر السموات

والأرض، وتلك كناية عما تحويه السموات من علوم وأسرار وما تحويه الأرض من آيات الله الدالة على الخلق حتى يعلم الإنسان بعقله وفكره، كما يعلم بروحه وقلبه، واختار الله الإنسان ليتعامل ويتلاقى بمخلوقات الله فى الأرض وفى السماء.

وقد أيقن يوسف أن لكل سر حديثا يخرج تأويلا فتتحول الأسرار إلى بركات للقلب، كلمات فى السمع، تأثير فى النفس، وذلكم هو التأويل الذى يترجم أسرار الله سبحانه وتعالى إلى أقاويل وانفعالات وأحاسيس وكلمات حتى يسكن كل ذلك قلب وعقل الإنسان، فينتقل إليه سر من أسرار الله ومعرفة من معرفته وعلم من علمه، وإن تأويل الأحاديث لا يختص فقط بتفسير رؤيا أو تحليل قضية، ولكن هى ترجمة صادقة لكل العلاقة الخفية التى بينه وبين الله سبحانه وتعالى، لتظهر واضحة جلية على يوسف فى كل خطوة من خطواته وتوجهاته، وتلك من العلوم التى تتجلى وتتكشف فى خطوات يوسف ولقاءاته وتحركاته.

وفى كل مرة تكون فيها حادثة يكون فيها فضل الله وعلمه ورحمته وهداه، فلولا ما حدث ليوسف من شدائد واختبارات ونعم وعطايا، ما وضح علم مكنون ليبدو واضحا متألقا فى حالة وحادثة وخطوة وحركة، فلينظر الناظر إلى يوسف فى مواقفه ليتعقب العلم من منابعه، وهذا هو التأويل الواضح لكل الأحاديث والكلمات التى كانت بين يوسف وربه العلى القدير " قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا." (الكهف:١٠٩)

وقد أشارت تأويلات يوسف وأحاديثه إلى الله الذى فطر السموات والأرض، وجعل لكل منها أهلها وسكانها وعلمها وكيانها، ولكن السماء والأرض فى لقاء مستمر بالرغم من بعد المسافة، إلا أن الاقتراب والدنو تحدده ملائكة السموات والأرض، وكلما حدث تلاق وتقارب بين الملائكة حدث تقارب السماء والأرض، وكلما تباعدتا كان ذلك دليلا على تباعد أهل الأرض عن الله وتجاهلهم لعلمه وأسرار كونه، فلا تحظى السماء بدعوة مستجابة، ولا تحفل الأرض بصلاة مقبولة.

فلن تبكى الأرض ولن تبكى السماء لموت كافر أو جاهل أو فاسق، وجاء ذلك واضحا فى القرآن الكريم:

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنْظَرِينَ (الدخان: ٢٩).

وعكس ذلك يحدث لأصحاب الدعوات المستجابة والصلاة المقبولة، فحينما يموت الإنسان الصالح يبكى عليه مكانه الذى كان يصلى فيه كما تبكى عليه السماء فى المكان الذى يصل إليه الدعاء، وهذا التباعد والتلاقى لا يحدده إلا العبادة الصالحة فى حالة التلاقى والعبادة السقيمة فى حالة التباعد حيث لا تتنزل ملائكة الله على أرض ليست خاشعة.

ولقد اعتقد يوسف عليه السلام اعتقادا راسخا لا يتزحزح وهو بجانب أبويه وإخوته على عرشه فى الدنيا أن الله وحده هو وليه فى هذه الدنيا، فهو الذى يتولاه ويرعاه، ويوسف يواليه ويغار عليه ويعمل بكل ما من الله به عليه من إيمان وصدق وجهاد، فتلك الولاية التى جعلها الله سبحانه وتعالى فيما بينه وبين يوسف عليه السلام، فالله هو الولى الحميد، ويوسف هو الذى يوالى ربه ولا يعمل على انقطاع دعائه أو صلته أو تباعده أو انشغاله بنعيم الدنيا وشهواتها وجاهها، وكل هذه الأمور لا تباعد بين يوسف وربه، فإذا مااقتربت العلاقة التى بينه وبين ربه، فإن السماء التى انفطرت عن الأرض هى أيضا تقترب باقتراب ملائكيتها لتظل آية من آيات رضاء الله سبحانه وتعالى على الأرض وسكانها وعلى السماء وملائكتها.

وتستمر الموالاة فى الدنيا وفى الآخرة، لا انفصال أو انفصام عن حياة الدنيا والآخرة، والعبرة بالوفاء النهائى والخاتمة الطيبة، وقد كانت رجاء عند يوسف عليه السلام أن يستمر حتى النهاية فى وفائه مع الله سبحانه وتعالى، فدعا الله، مخلصا له الدين، أن يتوفاه مسلما، والوفاة ليست نهاية، ولكنها وفاء بعهد الله فى الحياة الدنيا وحفظه وبركاته، فقد أوفى الله عهده، وأوفى يوسف بما يرجوه ويأمله، وكانت القمة فى القرب والعطاء والعبادة، أن يظل يوسف مسلما على قدر ما حباه الله من علوم ونعم حتى لا تنطفئ أنوار الإيمان فى قلبه، وهذا هو السمو الروحى الذى يلحقه بالصالحين فى يوم الموقف العظيم.

فالإسلام عند يوسف أن يبقى دائما فى ظل رحمة الله ولطفه وجاهه وسلطانه وعطائه، فهذه هى الأمانى والتطلعات الروحية التى كان يأمل فيها يوسف عليه السلام، ألا يودعه ربه أو

يفارقه تحت أى علة أو سبب يكون فيه اختبار يؤدى إلى انقطاع أو نسيان أو بعد عن الله سبحانه وتعالى، وفى مثل هذا المقام يجاهد يوسف نفسه حتى يظل وجهه ناضرا ولائقا للنظر إلى وجه الله الكريم، وهذه هى جنة يوسف ونعيمها وجمال رؤيتها، وذلكم هو حرص يوسف الذى كان ينشده فى حياته ومماته فدعا ربه قائلا:

تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّـٰلِحِينَ

كلمات كلها عذوبة وإخلاص وحب وتقدير لله سبحانه وتعالى، ولتظل هذه الكلمات قائمة تصلى فى محراب ربها فى صلاة أبدية لا تخرج منها ولا تنتهى، لأنها فى إطار محبة الله وعطفه، ولتظل كلمات يوسف وأحداثه قصصا يروى على كل السامعين، ويدخل قلوب المتطلعين، ولتبقى إلى أبد الآبدين حدثا روحيا عظيما ترك آثاره وبصماته على لوح محفوظ يحوى قرآنا كريما لا يمسه إلا المتطهرون، الذين طهر الله قلوبهم بالعلم وأحاطهم بالنور ومكنهم فى حياتهم الدنيا ووفقهم وألحقهم بالصالحين.

هكذا كان الختام الرائع الذى سوف يعيش فى هذه الأنشودة الروحية والعبادة القوية والدعاء المستجاب والشكر الغزير لله سبحانه وتعالى بما تلطف به وآتاه من كل النعم، كنعمة الملك وتأويل الأحاديث والتطلع إلى الغيب.

فى ختام هذا اللقاء نستودع يوسف عليه السلام بين يدى الله سبحانه وتعالى،وليبقى مثلا ورؤية واضحة، وحديثا عن الغيب أكده الله فى ختام هذه الآيات القرآنية بقوله تعالى:

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ

فكانت الخاتمة موجهة إلى رسولنا الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ليطلعه الله على غيبه من خلال ما أحله ليوسف عليه السلام وأعطاه كل العطاء وكل البركات، تنتقل إلى حفيد يوسف رسولنا الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ليقتطف من ثمار الآباء الذين نشروا الدعوة

١١٤

وباركوا الأرض، ليأخذ الرسول من كل هذه الثمار الطيبة ويعلن أنه كان حنيفـا مسـلما علـى ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

فسلام علي يوسف فى العالمين، وسلام على كل الرسل والأنبياء وسلام على سيدنا محمـد صلى الله عليه وسلم.

والفاتحة لكل هذه الأرواح الطيبة المباركة.

خاتمة الكتاب

ويسدل الستار على قصة يوسف عليه السلام لتبدو حقيقة واضحة وجلية، وهى تلك العلوم اللدنية التي حبا بها الله رسله وأولياءه، ولذلك حينما نؤكد العلوم اللدنية التى صاحبت يوسف ويعقوب عليهما السلام نجد أن القرآن يلقى بأضوائه على هذه العلوم الباطنة التى أرادها الله سبحانه وتعالى أن تكون ظاهرة وملفتة وفى إطار قصص قرآنى يشد الانتباه، وهذا تأكيد على أن القرآن الكريم يحتوى على العلوم الروحية أكثر مما يتضمنه من علوم شرعية، كالمواريث والمعاملات وغيرها، فمن لا يدرك الأبعاد الروحية، فقد يغفل قلبه عن طبيعة العبادة الحقة، والفارق بين العلوم الشرعية والعلوم اللدنية كالفرق بين الوضوء والتيمم، ولذا قال أحد العارفين توضأ بماء الغيب إن كنت ذا علم، وإن لم تكن فتيمم بالصعيد وبالصخر، وإن الحقائق القرآنية تنجذب نحوها القلوب المتوضئة التى تؤمن بالغيب إيمانا حقيقيا يهتدى بنوره المتقون، وكما جاء فى قوله تعالى "الٓمٓ* ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ"(البقرة: ١-٣).

فالإيمان بالغيب يدعوإلى الاغتراف من بحار العلوم اللدنية التى تصيب القلوب بحديث الفيض، وتلك هى فطنة المؤمن التى تدعو إلى اليقين الصادق والتحقق من الله سبحانه وتعالى، وصولا الى المعرفة الإلهية، التى تؤكد علاقة روحية وطيدة بين العارف والمعروف، والمعروف هو الله سبحانه وتعالى، وتلك قطوف دانية قدمتها سورة يوسف من خلال وقائعها وأحداثها، بل ومدى ما كان يتمتع به يوسف ويعقوب عليهما السلام من علاقة روحية بالله الخبير اللطيف. ولتظل أنوار هذه السورة ماثلة أمام العيون الباحثة والقلوب الواعية تدعو إلى ضرورة الاندماج فى روحانيات الدعوة والتحقق من الله من خلال الإيمان بالغيب والتأسى بشخصية سيدنا يوسف عليه السلام، وتلك هى الوجهة الحقيقية لمن أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا، وهذا هو السبيل الذى يؤدى إلى المعرفة الحقة بالله، وقد تتفرع سبل أخرى، ركائزها واهية كالنقش على الماء أو كالعزف فى الهواء، فجوهر الدين فى روحانياته التى صاحبت كل الرسل والأنبياء، وكان مثالنا فى هذا اللقاء هو يوسف عليه السلام.

فلتسارع العقول والقلوب بالعودة إلى طبيعة الدين وضرورة تدارك خطر الجمود الفكرى أو الاكتفاء بما يحويه الدين من أحكام ومعاملات وفتاوى وتشريعات دون تهيئة القلب لاستقبال النور الإلهى واستدرار عطف الله وحبه، وتلك مدرسة يوسف عليه السلام التى قامت على إحسان الله ولطفه ورحمته، لقد أطل يوسف من خلال هذه السورة بوجهه المشرق علينا جميعا لنتأسى به ونتألق فى حياتنا بطهارة القلب وعفة اللسان وكظم الغيظ والصبر على المكاره، وصدق الرسول الكريم فى قوله " علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل".

تحية وداع على أمل اللقاء فى يوم تقترب فيه القلوب وتأتنس به النفوس، يوم يحتشد الناس أجمعين لملاقاة الله رب العالمين. وهنا سيرى الناس يوسف قمرا مضيئا وحوله أحد عشر كوكبا يتلألأون.





لقد وضح من هذا أن القرآن الكريم لم يعلن اسم إمرأة العزيز، فلقد سترها الله فئ قرآنه ، بينما تشدق باسمها كل الذين خاضوا فىذكرها، ولها أن تتساءل يوم القيامة لتقول لهؤلاء: لقد سترنى الله سبحانه وتعالى وفضحنى الناس ، بل من أكثرهم علماً وتديناً ، كما تبين أيضاً أن امرأة العزيز ليست امرأة ساقطة ، بل كانت تبحث عن المجد والحكم بأى ثمن، وتلك ترجمة حقيقية للممارسات السياسية فى العالم بأكمله ولقد كانت امرأة العزيز صريحة حينما قالت " أنا راودته عن نفسه " ، وكانت عنيفة حينما توعدت يوسف بالسجن أمام جمع النسوة ، وكانت ضعيفة حائرة أمام طهر يوسف وعفته ووداعته، وتلك هى أحوال النفس المتقلبة التى لا تبقى على حال واحدة.

